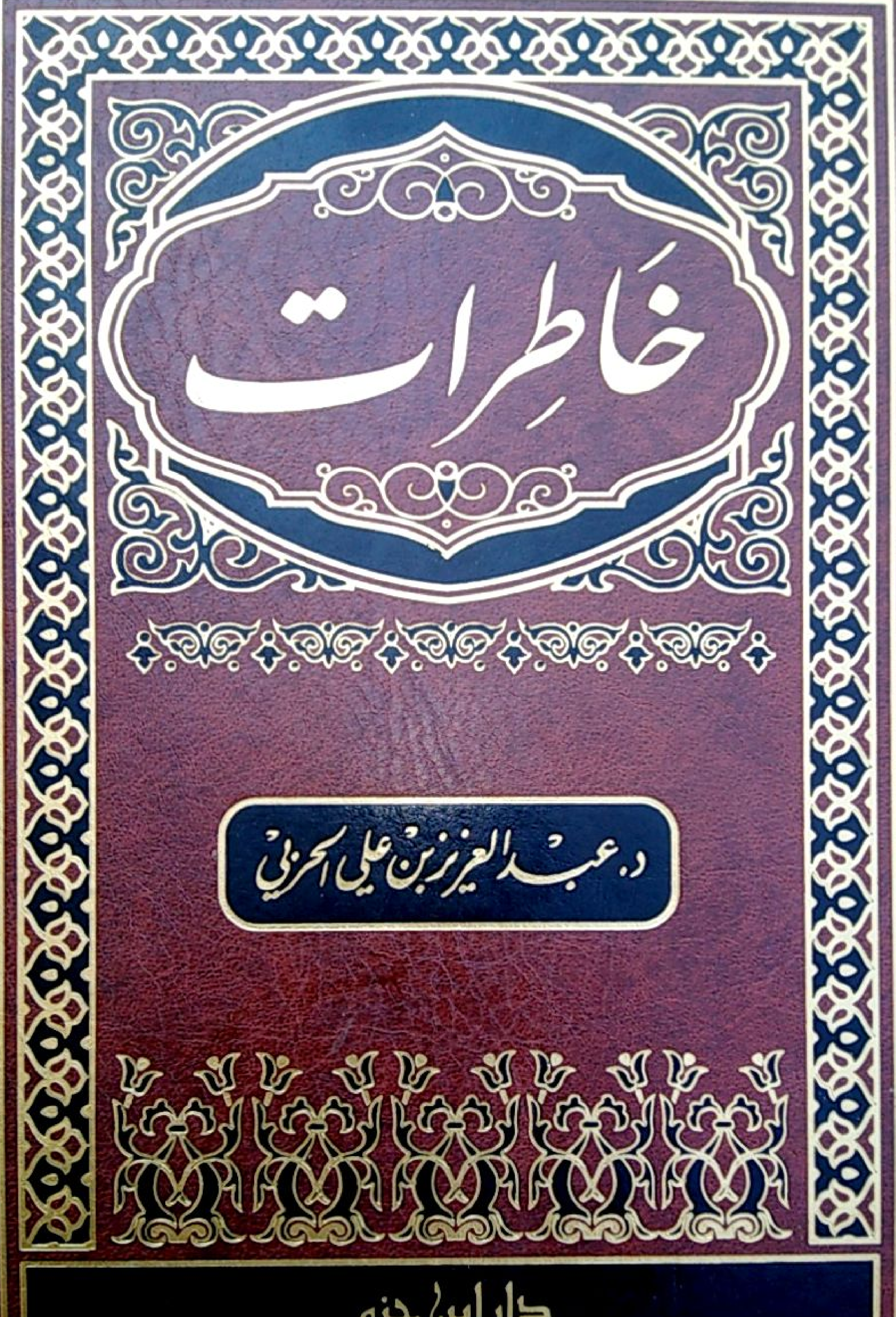
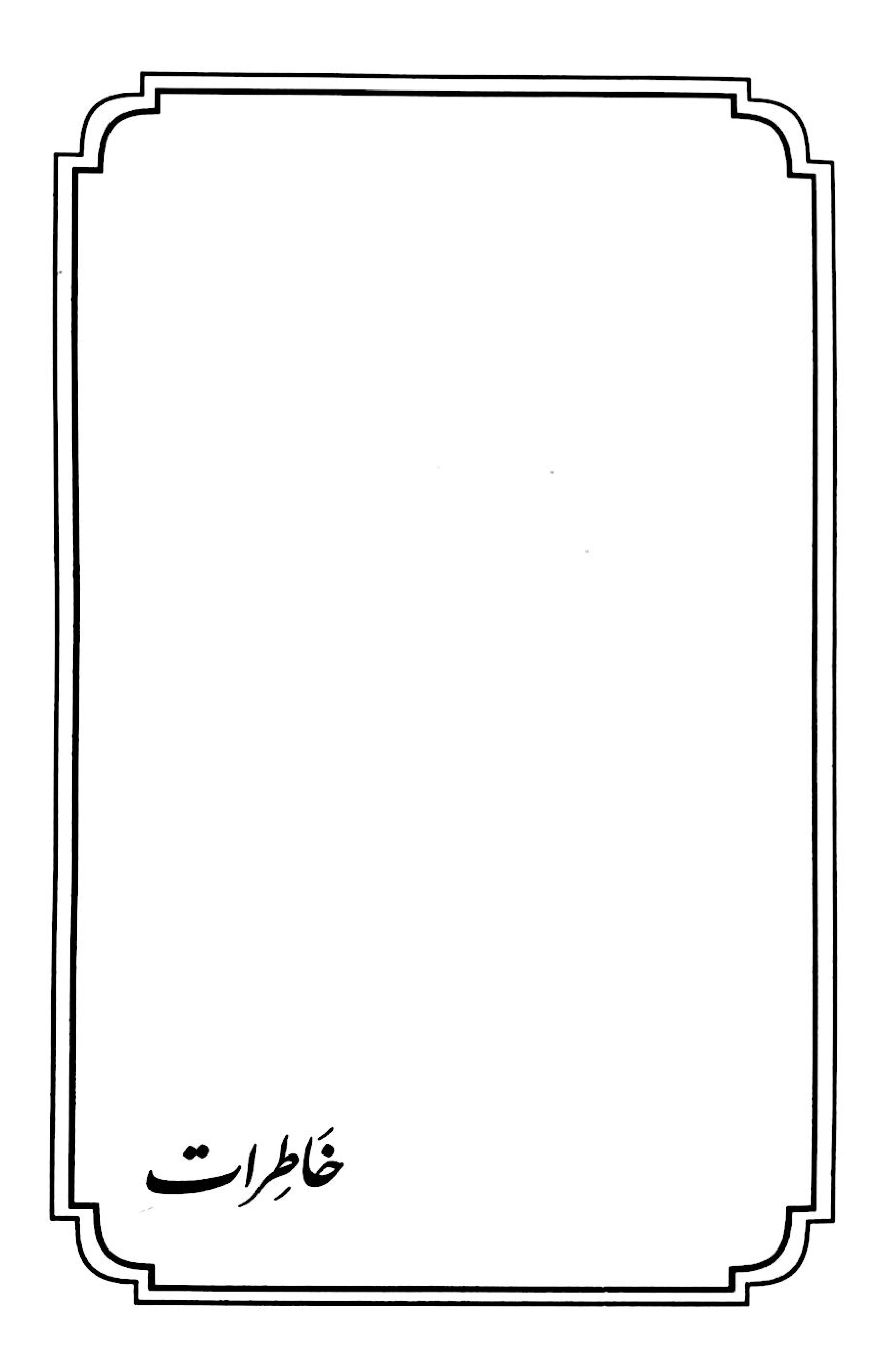


دار ابن حزم


خاطرات

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى اللهُ على نبيِّنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلَّم تسليماً كثيرًا،،

خَاطِرات

د. عبد العزيز بن علي الحربي

دار ابن حزم

الطبعة الثانية
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م



ISBN 978-9959-854-86-5

دار ابن حزم

بيروت – لبنان – ص.ب : 14/6366

هاتف وفاكس : 701974 – 300227 (009611)

البريد الإلكتروني : ibnhazim@cyberia.net.lb

الموقع الإلكتروني : www.daribnhazm.com

مقدمة الطبعة الثانية

للقلوب وهي مجامع الخـواطر تعلّـق بهـا، فهـي منـها صـادرة وإليهـا واردة، وشاهد ذلك أنني أكتب مقدمة هذه الطّبعة والقلم قريب العهد من كتابة مقدمة طبعتـه الأولى؛ إذ كانـت نسـخه الأولى أسـرع مـن الظّلّـيم، ولم أغيّر في هذه الطبعة من شـيء إلّا تصـحيح لفـظ، أو تحسـين هيئـة، ولا أرى أن يغير المصنّف طبعة كتابه السّابقة بمـا يمسـخها إلّا أن تكـون ضرورة، فإنّ في ذلك إهدارًا لحقّ المشتري الأوّل، ويلجئه إلى أن يلاحق طبعات الكتاب الجديدة فيشتريها، ويلغي ما سبق، وإنّما الطّريق الأقوم أن يكتفي بالتّصحيح والتّنقيح وبما لا يعدّ من الزّيادات الكبيرة، فـإن أراد أن يزيد في كتابه زيادة تزيد من مادّته وحجمه فليجعله كتابًا آخر بعنوان آخر.

هذا ما أعتقد أنّه الصّواب، وأمّا تجّار الكتب ومَن وافقهم من أهل التّصنيف فلا يرون في تنامي الطّبعات ضيرًا، ويرون أنّه من الجيّد المستحسن أن يبدأ الكتاب بمئة صحيفة ثم يزاد فيه في كلّ طبعة ضِعفه .. بهذا أفتاني كلّ من سألته منهم حين أردت أن أطبع كتابي «وجه النّهار» بزيادات كثيرة، وأن أسمّيه «وجه النّهار [الأوسط]»، ولا أزال مصرًّا على رأيي، وسيخرج بعَون الله على هذا النّهج الذي أراه صوابًا، مغيّر الاسم والمسمّى .. ولكلٍّ وجهة، ولكلّ أناس مشرب .. ونسأل الله أن يؤيّد خواطرنا بروح منه، وأن يضيئ مجامعها بأنواره، وأن يحميها من أن تُكسف إشراقاتها بطوع الأهواء ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٠-٤١].

بين يَدَيْها . . !!

«الخاطرات» المائسات من النِّساء تبخترًا، وهـي أيضًـا – وهـو المُـراد هنا –: الواردات التي تَرِد على البال، وتسمّى خواطر القلب، وبنات الفكر التي قيل فيها:

لنا من بنات الفكر نسلٌ به نسلو

وترد على القلـب في اليـوم آلاف الخـواطر، والوسـواس نـوع منـها، والناس مختلفون في قوة الخاطر ونوعـه، وكـل إنـاء بالـذي فيـه ينضـح. فخاطرات أصحاب الهمم العالية والنفوس الزكية، والعقول الصحيحة من صوائب الحكمة التي يؤتيها الله من يشاء.

وفي العوام الذين لم يرد على فطرتهم ما يُغيِّرهـا عـن أصـلها مـن هـو كذلك، ومن سالفي العبّاد طائفة سمّـوا «عقـلاء المجـانين»، قـال عنـهم طائفة من أهـل العلـم: هـم أنـاس وهبـهم اللهُ عقـولاً وأحـوالاً، فسـلب عقولهم، وأبقى أحوالهم، وأسقط ما أوجب بما سلب.

وفي هذا الكلام نظرٌ يفضي إلى تصوره دون تصـديقه؛ إذ لا يمكـن أن تكون الحكمة مع ذهاب العقل، ولكن يمكن أن يقال: لا تسلب عقـولهم جملة، بل تتعاقب أحوالهم وعقولهم، فما كان من الحكمة فهـو مـن أثـر العقل.

وتواردُ خاطرَيْنِ أو أكثر، من اثنين أو أكثـر في كلمـة أو جملـة يسـيرة ممكنٌ، وهو نادرٌ جدًا.

وأمّا اتفاق شاعرين في بعض البيت من الشعر فممكنٌ، بل واقع، قال ابن حزم: «شاهدناه مرتين في عمرنا، وأخبرني من لا أثق به أن خاطره وافقَ خاطرَ شاعر آخر في بيت كامل.

وأمّا الذي لا شكَّ في امتناعه فهو اتفاقهما في قصيدة، بل في بيتين».

وهذا كلّه في الألفاظ، وأمَّا المعاني فالتوارد فيها كثيرٌ، بل ربما خطر للجليسين خاطر واحد في وقت واحد، ولم أشهد خاطرًا وقع لثلاثة في وقت.

هذا وإنَّ «الخاطرات» جمعٌ سالمٌ يكون للقليل والكثير، وجعله سيبويه من جموع القِلَّة في أصل الوضع، ولا دليل لذلك إلاَّ ما رُوي أنَّ النّابغة عاب على حسَّان في قوله:

لنا الجفَنَات الغرّ يلمعن بالضّحى   وأسيافنا يقطرن من نجدةٍ دمَا

فقال له: قلّلتَ «الجفان» وهُنَّ كثير ... إلخ، وهي قصة موضوعة، مهيضة مقطوعة، رواها هيان بن بيان، ومفجوع بن مفجوع، وضُلّ بن ضُلّ، وطامر بن طامر، والله يقول: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]، وهي - هنا - للكثرة بلا ريب.

هذه خاطرةٌ بين يدي «الخاطرات» التي يطول بعضها، وبعضها يقصر، على تفاوت في قوّتها، فلا تقرأ أيّها القارئ من خلالها عقلي ولا نفسي، فإن ظننتَ بي خيرًا فلك الحُسنى وزيادة، وإن كانت الأخرى فالله يغفر لي ولك.

أبو محمّد
عبد العزيز الحربي
غُرة صفر ١٤٣٥هـ
مكة المكرمة - حي الزّايديّ

أعجَبُ العَجَب !!

الواجبُ على العاقل أن تكونَ قراءتُه لكلام البشر قراءةَ الناقد البصير؛ فإن كان من يقرأ له ممن لم يُعرَفْ بعِلم ولا تحقيق، فليكن الحذرُ أوّلَ أسلحته، فقد بُليَت الأمة بأناس لا يبالون بما يقولون، ولا يحققون فيما يكتبون، يستغفلون الناس ويستحمقونهم بحماقات وتُرَّهات .. وفي الآونة الأخيرة أقبل فريقٌ من تُجّار التأليف فوجدوا أربح التِّجارات في التَّأليف: في الحبة السوداء ومنافعها، وفي الثوم والبصل والعسل، فحَشَوْها بالأكاذيب والأضاليل، بعبارات موهمة ضِخام .. هذا أحدهم يقول عن البصل: إنّه أعجب العجب لكلّ عَطَب، ويقول في مَغْلي النَّعناع: «مَن شَرِبَهُ وجد قريحةً متفتحةً، وذِهنًا مُتَّقِدًا بالذّكاء، ولَسوف يحفظ كلّ ما يريد»، فَاْشَربوه - أيها القُراء - لعلكم تفلحون .. ويقول في كتاب صنّفه في (الثوم): «الإهداء: إلى أخي من العَالم الخَفيّ التَّقيّ النَّقيّ .. الجنّي! عبد الله عمر».

ذلك لتعلموا أنّ الرجل يخبركم بمنافع الأعشاب مِن عالم الجِنّ، فمن أراد منافسته فليقطع الأمل، ورأيتُ له كلامًا يُرشد فيه النُّفساء أن تأكل الدّواء العُشبي، وتقرأ معه (سورةَ الجنّ) .. ومثل هذا الهُراء كثيرٌ في كتبه، ويقول فيمن أصيب بضَربة الشّمس: «يبخَّرُ بيتُ العنكبوت قبلَ النَّوم، ويدهن بعصير الليمون الأخضر». وهذه أتركها للأطباء يحكمون فيها، وما أظنها إلاّ من وحي أخيه المزعوم الذي سمّاه: عبد الله عمر الجنِّي المسلم. ووجدتُ آخر يقول عن البقدونس: مُقَوٍّ للجنس إن شاء الله .. وشبكة الصيد هنا في قوله: إن شاء الله.

وقد كان لداوود الأنطاكي صاحب (التذكرة) مبالغات، غير أنَّها لا تصل إلى مثل هذه التخريفات .. والله المستعان.

مَلكَةُ النَّقْد

النّقد ظاهرةٌ صحية، لا يرفضها إلاّ ضعيفٌ في رأيه وعِلمه وحُجّته، غير أنّ النّقد منه ما له غايةٌ نافعةٌ، ولصاحبه مقصد حسنٌ لا يريد به سوى الإصلاح، ويقدّمه للناس على بساط من الحكمة والاعتدال، ومنه ما لا غايةَ من ورائه إلاّ النقد ذاته، نفع أم لم ينفع، كمن يريد الاعتراض واللّجاجة، وإظهار نفسه، كما فعل ذلك الرّجل الذي قال في حُكم رسول الله ﷺ حين حكم في الجَنين المقتول في بطن أمّه، فقال ذلك الرجل: (كيف يُغرَمُ مَن لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهلّ، فمثل ذلك يُطَلّ) - أي: يُهدَر -. وقد دلَّت ألفاظه وعباراته التي نطق بها على مراده، وتكَلُّفِه في النّقد، والتسجيع، ولهذا قال النّبيُّ ﷺ: «إنّما هذا من إخوان الكُهّان». من أجْل سجعه وتكلفه، وجداله بالباطل، والاحتجاج بزُخرف القول؛ ليدْحَضَ به الحقّ.

وتربيةُ ملكات الطلاب والأبناء على النقد الهادف ضرورة من ضرورات تنمية الفكر، وإيقاظ الهمم والخواطر، ومن مقدّماتها: النظر، والفهم، والتحليل. وحسبك بشيء يحرّك هذه المدركات من قبل، ويثمر ما ينفع الناس والعالم من بعد .. لهذا رغبتُ في أن تكون مقالاتي مبعثرة لما تبرزه مرآة المجتمع، مُحَصّلة له، وما تعكس المرآة من صور حسنة - وهو الأصل والكثير - فإنها تحدِّث أخبارها به، حين يكون الحديث حسنًا غريبًا.

المشيُ .. دواء لا يخطئ !!

كان المشيُ في السّابق وسيلة تحقق غايةً، ويحصل به منافعُ، وأصبح اليوم غايةً من الغايات، يمارس فيها الماشي الحركةَ لذاتها، بعد أن

أضعفت الوسائل الحديثة هذا النَّوعَ من الحركة، فأصبح الإنسان يذهب راكبًا، ويجيء راكبًا، ويغدو راكبًا، ويروح راكبًا، فلمَّا أخذه اللّحم وسمن سِمَنًا فاحشًا - والسمنة أصبحت تشخَّص على أنها مرض من الأمراض؛ لما تسببه من عِلل وأخطار - لما صار كذلك، أو تسلل إليه مرض السكري، أو ضغط الدم، أو الكلسترول، أو آلام القولون، أو ضعف الهضم، قيل له: اِمْشِ، وتداوَ اليوم بما أهملته أمس، فقَلَّلَ من ركوبه، وربما ركب سيارته لكي يجد مكانًا مناسبًا يمشي فيه، والأمر يهون إلاّ إذا كانت العِلَّة في الرُّكَب، واحتكاك العظام فيها، فهذا هوا الدَّاء العُضال الذي أعيا الناس ولم يجدوا لَه طبيبًا، وهو الذي يقول فيه جرير:

* وليس لِداءِ الرُّكبتين طبيبُ *

وهو الذي يقول فيه الأطباء للعليل: لا تمش؛ لأنك تركت المشيَ ومن ترك المشيَ تركه المشيُ، ولا بد أن نستثنيه من القاعدة الكلية التي ذكرناها في (ما هَبَّ ودَبّ)، وهي: «كل دواء يخطي ويصيب إلاّ المشي، فإنه دواءٌ لا يخطئ»، ونظمته في بيت واحد:

كل دواءٍ مخطئٌ حينًا مُصيبْ حينًا سِوَى المشي فترياقٌ عجيبْ

ولو شئتَ جعلتَ هذه القاعدة بلا استثناء؛ لأن قائل ذلك أراد المشي حين يكون دواءً، فإن كثيرًا من الأدوية لا تفلح، وأمّا المشيُ فإنّه حين يوصف دواءً يكون دواءً ناجعًا نافعًا بإذن الله، غير أنه دواء ملازم يجب أن يمارسه المرء طولَ حياته .. وتجربتي مع المشي طويلة، ومع اقتناعي بضرورته، فإني أتركه في أحيان كثيرة بسبب انشغالي بالقراءة والتّأليف والتّدريس؛ لأنه يحتاج إلى وقت طويل في اليوم، إلى ساعة أو ساعتين، وأمّا المشي القليل دون الساعة ففائدته قليلة، وكذلك المشيُ الضعيف ولو طالت مدته، والمشيُ في فناء المنزل ولو كان في مكان طوله عشرة أمتار

خيرٌ وأروح للقلب من المشي في الأزقة وبين الشوارع حيث يمشي النّاسُ ويقفون، وتزدحم السيارات، ويتأذى الإنسان بدخانها وروائح عوادمها، وبالحرّ الشّديد أو البرد، وفي ذهني من أخبار المشائين وطرائفهم من المعاصرين وغيرهم شيءٌ كثيرٌ.

خيال الوهم

إذا قوي التوكّل ضَعُف الخوف من غير اللهِ، فالثقة بالله أزكى أمل، والتوكل عليه أوفى عَمل، والخوفُ من حقائق الأشياء الثابتة خوفًا طبيعيًا يتفاوت فيه الناس على قدر قوة توكلهم وقوة قلوبهم، وليس بمعيب، إنّما المعيبُ هو الخوف الزّائد المتعلق بالأوهام لا بالحقائق، والخوف الذي يمنع من تحصيل مطلوب ونوال مرغوب، وما أكثر هذا النوع في هذه الأزمان، لا سيّما الخوف من الجنّ وإيذائهم وتلبّسهم.

وهي فتنة كَبُرَتْ في هذا العصر وتفيَّل شبابها، ربّاها ونماها مدَّعو المشيخة من أهل الرُّقى والتعاويذ، منهم الجاهلون الصالحون، ومنهم دون ذلك ممّن هم كالكُهَّان والعَرَّافين الذين جعلوا الدِّين ومظاهر التَّدين بازًا يصيدون بها أموالَ النّاس بالباطل، فزادوهم رهقًا.

ولقد ضاقتْ مذاهبي في بعض السِّنين التي بلغتْ فيها الوساوس في هذا الباب مبلغًا عظيمًا، حتى وجدتُ معظمَ مَن حولي يشكون من إيذاء الجنّ، كأنّما خلقهم اللهُ لإيذاء بني آدم، فهذا يشكو من صداع في رأسه، وقال له الشَّيخ الرَّاقي: إنّه من الجنّ، وهذا يحكي قصةً لأخيه وجنية ركِبَتْهُ، وقال لي رجلٌ له حَظٌ من الحلم والعلم: إنّه قام من النَّوم فوجد ضِيقًا في صدره، فلم يستطع التّنفس، فلم يجد تفسيرًا له إلاّ أن جِنّيا جثم على صدره وحبس أنفاسه.

وأمّا النِّساء فلهنّ من هذا أوفر حظٍّ ونصيب، ولا تجرؤ الواحدة منهنّ

على أن تقول: جنيّ، أو جنّ، بل تقول: بســـم الله، ودخل فيه بسْمِ اللهِ، وأعوذ بالله من بسم الله، فانظر إلى هذا الجهل الفاحش، الذي غـاب فيـه الفهم، والعقل، والتوكل، والشجاعة.

وهكذا الخوف من العين والحسد، حتى إن المرأة لتخشى أن يُعرف كم عدد أولادها، فإن سئلت قالت: - إن كان عددهم أربعـة -: يـا حـافظ، يا حافظ، يا حافظ، يا حافظ، أربعـة، وتكـتم مـا في رحمهـا عـن أمهـا وأبيها، حتى لا تُحسد فيسقط جنينها.

وأكبر ما يحزن له القلب أنّ هذا الأمر يكثر لدى أهل التديّن والالتزام، وقد أوحى إلى بعضهم أولئك الرَّاقون أن سماعهم للغناء ووجـود التلفـاز في بيوتهم هو سبب بلائهم واقتحـام الجـنّ علـيهم ونفـوذ الحسـد إلـيهم فتركوا الغناء والتلفاز خوفًا من ذلك لا طاعةً لله ورسوله، وقطعوا أرحامهم وهجروا قرابتهم خوفًا من العين والحسد، وأعرف في ذلك قصصًا وأخبارًا تدع الحليم حيرانَ، وما أظن أحدًا في الجزيرة لم يَنَلْهُ طرف من أخبار هذا الواقع المؤلم، فإن لم يكن لديـه فسـوف يجـد مـن يحدثـه مـن العجـائز ما لا يجد له آخِرًا.

قَهرُ النَّفْسِ

قد تخدع الإنسانَ همتُّه العالية، فتُسوِّلُ له نفسه أن يكون كاتبًا أو خطيبًا وهو لم يُخلق كاتبًا ولا خطيبًا، فيقهر نفسه على صنع الموهبـة. فيقـع في تكلفات تشقُّ عليه، ويتّخذ ذلك حرفةً من غير احتراف حقيقـيٍّ، ويكـون أيضًا على حساب ملكته التي نشأ أو نُشِّئَ عليها.

ولقد قال أبو العباس المبرّد عن نفسه في كتابه (الكامل): «إنه ليس أحدٌ في الخافقين مَن يَختلج في نفسه مسألةٌ مُشكِلةٌ إلاّ لقيني بها وأعدَّني لهـا،

فأنا عالمٌ ومتعلِّمٌ، وحافظٌ ودارسٌ، لا يخفى عليَّ مشتبهٌ من الشّعر والنّحو والخطب والرّسائل، وربما احتجتُ إلى اعتذار عن فَلتةٍ أو التماس حاجة، فأجعل المعنى الذي أقصده نصب عيني، ثم لا أجد سبيلاً إلى التعبير عنه بيَدٍ ولا لسان. ولقد بلغني أنّ عبيد الله بن سليمان ذكرني بجميل، فحاولتُ أن أكتبَ إليه رُقعةً أشكره فيها، فأتعبتُ نفسي يومًا في ذلك فلم أقدر على ما أرتضيه منها، وكنتُ أحاول الإفصاحَ عمّا في ضميري فينصرف لساني إلى غيره»[١].

كانوا .. فصرنا

كان أهل العلم - فيما خلا - إلى زمن قريب، يشكون من قلّة الكتب وندرتها، وإذا ظفر أحدهم بكتاب كأنما بُشِّر بغلام على كبر وهو عقيم!! فأصبحنا اليوم نشكو من كثرتها وتعدُّد طبعاتها.

وربما كان الكتاب مطبوعًا على أحجام مختلفة، فترى الكتاب الذي كان مطبوعًا في مجلدين أصبح مطبوعًا في مُجَيْلِيْد في قبضة اليد، وبألوان متعددة، وبُرمِجَتْ كتب كثيرة في الحاسوب (الكمبيوتر) فزهد النَّاس في شراء الكتب.

وليس هذا بعجيب، إنّما العجيب أن ترى المكتبات تزخر بالكتب الجديدة أكثر من أيّ وقت قبل، وأنّ المفيد منها غير كثير، وفيها ما هو تكرار لكتب سابقة من كتب المتقدمين والمتأخرين .. ككتُب التّجويد لا تكاد تجد في بعضها - مع الخلل الكثير - إلاّ زيادة الحُمرة والخُضرة، ومنهم من تبرع برسم الأضراس واللّهاء وغيرهما من مواضع مخارج الحروف.

---

(١) هذا النص من كتاب الأديب الكاتب أحمد حسن الزيات (دفاع عن البلاغة: ١١).

وكتب الحبة السوداء لم تصنَّف إلا في هذا العصر، كأنها لم توجد من قبل، لمّا رأى الناس إقبال الخاصّة والعامّة على مثل هذه الكتب عند صدورها أول مرّة، أقبل على التَّصنيف فيها من يحسن ومن لا يحسن، فهناك عشرات الكتب في الحبة السوداء، فمن أراد أن ينظر صِدقَ هذا الكلام فليرجع إليها.

وقليلٌ من رُزق حُسنَ التَّأليف، ودَليلُ حسنها بقاؤها، ولا يُغترُّ برَوَاج كتاب في حياة مؤلِّفه، فقد يَرُوج تبعًا لاسم مؤلفه وشُهرتِه، وفي أسلافنا المكثرين مِن التَّصنيف مَن يقال له: محمد ابن طولون، له أكثر من سبع مئة وخمسين مصنَّفًا .. سألتُ بعضَ مشاهير أهل العلم: هل تعرف له كتابًا، أو انتفعتَ بمُصنَّف من مُصنفاته، فأجْهَدَ ذاكرتَه ليذكر شيئًا فلم تسعفه بشيء، فهل من مُدَّكر ؟

أحقر العباد .. وأفقرهم إلى الله !!

في إظهار التَّواضع ما هو فخر، وفي ذمّ النَّفس ما هو مدحٌ، وفي ذمّ الآخرين والحطّ من شأنهم ما يستَتْبعُه ثناءٌ على الذّات، في كثير من الأحيان.

وعبارة «أنا أحقر العباد، وأفقرهم إلى الله» من عبارات التَّواضع المخالفة للواقع، أو لاعتقاد المخبر، أو هما معًا .. والشرع يحاسب المخبر لاعتقاده؛ لأنه كاذب، ويحضّ على مراعاة صدق الخبر من جهة المطابقة للواقع إخبارًا واستخبارًا؛ لأنّ التَّفريط فيه مذمومٌ.

ولسنا نحاكم جميعَ من يقول ذلك، فالله أعلم بالنِّيَّات، ولكننا نحكم على المجموع الذي شهد له الحال بما ادّعيناه سلفًا من أنه فخرٌ في ثوب من التَّواضع، وللنُّفوس الأمّارة طرائق مختلفة في الإيهام .. ففي النَّاس من يمدح نفسه على هذا النَّحو، وفيهم آخرون يتوصلون إلى مدح أنفسهم بذمّ الآخرين.

فإذا أحسنَّا الظنَّ بالمتكلم - وهو المطلوب - وقلنا: إنه صادقٌ عند نفسه، قاصدٌ التَّواضع حقيقة، لم يخرجه أيضًا من الذَّمّ؛ لأنه لا يخلو من أمور ثلاثة:

أحدها: إمّا أن يكون المتكلمُ هو في الحقيقة أحقرَ العباد وأفقرهم إلى الله، فعليه بعد ذلك أن يخبرنا: من أخبره بذلك؟ وكيف نما إليه علمه؟ فإنّه ممَّا لا يُعلم إلاَّ بالوحي، بل لا يُعرف الأحقر والأفقر في عدد قليل إلا بذلك، فكيف بأحقر العباد كلهم؟

الثاني: وإمَّا أن يكون بلغ مبلغًا من الخوفِ والخشيةِ من الحقّ عزّ وجلّ، وحياءِ العبودية، ورؤيةِ التَّقصير، واستشعارِ عظمةِ الجبار، فرأى أنه أحقرُ العباد وأفقرُهم إليه، فيقال له: فلماذا تخبرنا بذلك؟ وهل هو إلاَّ بمنزلة قولك: أنا أولكم عبوديةً في منزلتي (الخوف) و(الحياء) ونحوهما؟!

الثالث: وإمّا أن يقول: إنّه يعلم من نفسه ذنوبًا حتى أصبح لا يرى مذنبًا غيره، ولا مخطئًا سواه، فارتدَّ ذلك على نفسه فرأى نفسه على تلك الحال التي وَصف، فيقال له: هلاّ أحسنتَ الظَّنَّ بربّك؟ وعلمتَ أن كلّ ابن آدم خطّاء؟ وهلاّ سترتَ ذلك واعترفتَ به بينك وبين ربّك؟ فإن قال: إنّما أريد تربيةَ النّفس حتى تكون أحقرَ شيء عند نفسي، قلنا له: ربِّها على الصّدق، فهذا خيرٌ لك ولها، وليكنْ سرّك خيرًا من علانيتك، واعلم أن مَن قَبْلَك من السّلف الطيب لم يكونوا يقولون ذلك، ولا ما يشبهه.

أحوالُ النَّفس

ليس بلازم أن يُعجب غيرَك ما يُعجبك؛ إمّا لتفاوت في طبائع النّفس، أو التّطبع الذي نشأ على غلبة الجدّ، أو المقام الذي يحيط بالمرء يكسر

إعجابه دون أمور كثيرة، أو لاختلاف الحال والاستعداد في وقت دون وقت، فقد لا يعجبه ما يعجبك في هذه الحال؛ لفراغ قلبك وسرور طافحٍ عليك، ولأنك صرتَ مستعداً في تلك الحال، وقد يوجد عند من تكاثرت عليه الهموم وتوالت عليه الأحزان واردٌ يفجِّر منه ضحِكًا مُسلسلاً يجهد في حبسه لِفرْطِه.

والدّليل على تفاوت الحال أن الإنسان الواحد بعينه يعجبه الآن شيءٌ ويسرّ به سرورًا بالغًا ثم لا يلبثُ في وقت آخر أن يَعْجَبَ من عجبه ذلك كيف حصل منه في أمر لا يستحق ذلك منه ؟ وما هو إلاّ اختلاف الواردات على النَّفس وتزاحم المقلِّبات التي تغير الحُجُب.

ومن أهل العلم من يقول بتعدّد أنفس للجسد الواحد، ولا يجعل التَّغاير في وصف النفس (المُطمئنة واللّوامة والأمَّارة) تغاير صفات لذات واحدة، ولكن الله يقول: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الزمر: ٦] في نصوص صريحة صحيحة أخرى تشهد لذلك، مع لوازم عقلية وحسية.

ويلزم ذلك القائل أن يقول بتعداد أنفسٍ لا حدّ لها، أو يذكر لنا عددًا معيّنا، والعجز عنه حائلٌ بينه وبين ذلك، إلاّ أن يقول: إنّها الثّلاث التي ورد وصفها في التّنزيل، فيقال له: فهل للكافر نفسٌ مطمئنةٌ وأخرى لوَّامة، كلّ نفس قائمة بذاتها؟ فإن قال: لا. انتقضت دعواه.

وإن قال: نعم؛ لأن متبع الهوى والشهوة طائع للنفس الأمارة، والأخريان خاملتان لقوة طبيعة الهوى. قيل له: فما بالنا نرى المؤمن تأمره النّفس بالسُّوء وتلومُه على فعله، فتنفعل عنده النّفس بهذين = الأمرِ بالسُّوءِ، واللّومِ، فهما عاملان ناصبان ما اختلف اللّيل والنّهار والشّمس والقمر، ولكنه لا يكفّ عن مغالبة الهوى، فلِمَ قلتَ: إنّ طائع النّفس الأمَّارة لا تقوم لديه إلاّ هي، وقلتَ في غيره بانفعال نَفْسين أُخْريين ؟

هذا ما لا يعجبني منك، وإن أعجبني للوهلة الأولى[١].

آفة الأخبار ..!!

من حِكم الشّعر ما جاء على لسان الشّاعر حين قال:

* وما آفة الأخبار إلاّ رواتها *

والرّواة منهم الصّادقون، ومنهم دون ذلك، فمن تبيّن ولم يعجل فقد تحرَّى رَشَدًا .. ودونكم مسائلَ أربعًا نُسبت إلى الإمام ابن حزم الظّاهريّ، وهو منها براء، يردّدها بعض الخاصَّة ومَن دونهم من أهل العلم:

وإحدى المسائل: القول بأنه لم يطلب العلم إلاّ بعد السادسة والعشرين من عمره في قِصَّة يُذْكَر فيها أنّه دخل المسجدَ فجلس، فأُمِرَ بالصَّلاة ركعتين .. إلخ. وهي قِصَّة مشهورة يحكيها مَن يحكيها للحثِّ على طلب العلم، وأنه لا بداية له.

وبأدنى تأمُّلٍ وبحثٍ يدرك طالب العلم أنها مُنْتَحَلَة، وليس لها خطام ولا زمام، ومن قرأ سيرة هذا الإمام عرف أنه نشأ في بيت علم وعمل، وأنه حفظ القرآن وعُلِّم مقدمات علوم الشريعة والعربية في سن مبكرة، وأنّه طلب الحديث والفقهَ وهو دون البلوغ، وأن من أشياخه في ذلك من مات وابنُ حزم لم يتجاوز السَّادسة عشرة، وممّن سمعته يحكيها الشيخُ ابنُ عثيمين - رحمه الله - عام ١٤٠٧هـ بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، في محاضرة ألقاها علينا يوم ذاك.

الثّانية: القول بأن مذهبه في الطّواف بالصّفا والمروة أربعة عشر شوطًا، وهي أكثر المسائل الأربع شيوعًا عنه، وما بالعهد من قِدَم، فقد سُمِع

(١) أصل هذه المقالة: محاورة بيني وبين بعض أهل العلم.

الشيخ (فلان!) - عفا الله عنه - يوم الأربعاء الماضي في سؤال على الهاتف: يقولها، وردَّدها ثلاثًا .. ومصنفات ابن حزم كـ (المحلّى، وحَجَّة الوداع) تنادي بصوت عالٍ على نقض هذه الدَّعوى وبراءته منها، بل إنَّ ابن حزم يحتجّ بالعقل والنَّقل على من يقول بهذا القول.

الثَّالثة: قال لي غيرُ واحد، منهم أستاذٌ كان يُدَرِّس لنا العقيدة: إنَّ ابن حزم يُحَرِّم أن يقول المرءُ لوالديه: «أفّ»، ويبيح أن يأخذ العصا ويضربهما حتى يَبْردا. فقلتُ له: أين هذا ؟ قال: في كتبه. ثم أدبر يسعى. غفر الله له.

الرَّابعة: ما يردِّده بعضُهم تقليدًا لابن عبد الهادي: أنَّ ابنَ حزم جَهميٌّ جَلْدٌ، وهذه أظلم وأطغى. ولا يقول هذا إلاَّ جاهلٌ بمذهب جَهم أو حال ابن حزم، أو بهما معًا، أو كان قاسطًا، أو لا يدري ما يخرج من رأسه، ولو ألقى معاذيرَه.

وليس الغرض - هنا - الدِّفاع عن ابن حزم وحسب، بل الغرضُ الأكبرُ هو التَّذكير بقول الله: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ .. سامح الله الجميع.

آفةُ العِلم وطالبِه

إذا رُزِق طالبُ العلم مَع العلمِ الحفظَ والفهمَ، فهو ذو حظٍّ عظيم، فإن حصل له البيانُ في اللّفظ والكتابة زاد حظُّه، فإن كان قليلَ النسيان لم يسبقه أحدٌ، فإن كان مع العلم عمَلٌ، وسَلِم من آفات العلم، جَمع شَرفي الدنيا والآخرة.

ومن آفات العلم وصاحبه: العُجب والغرور، وإن المرء ليُصرف عن أنوار آيات الله والحكمة بقدر زَهوه وبطره الحقَّ وغَمصه النَّاس، لقول الحق سبحانه: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وآيات الله تُسمَع وتُبصَر، فإن نطق بالحكمة وهو على تلك

الحال فهو عن تلقين، وكأيِّن من طالب علم كان له علم كثير فأفسده بكبره وصَلفه.

ومن آفات العلم وطالبه: أن يشتغل بإدارة أو منصب، يأخذ روح وقته، ويقذف به إلى مكان بعيد عن علمه، فإن كان مستشرفًا لذلك طالبًا له فلا تسألني عنه !!

فإن وَلِع بالأخبار وتحليلاتها وغثائها وشُومها وحَدْسِها ومَينها، ونسي ما كان يدعو إليه من قبل ضُربت عليه الخَيبة، فإن شغله الصَّفق بالسُّوق والإعناق[1]، والأخذ بالسُّوق[2] والأعناق، واستغرق في ذلك، صارت مسائل العلم في قلبه خيالا يتخيَّله.

والمخرج من ذلك كله لمن طافت به آفةٌ من آفات العلم أن يشتغل بشيئين أو أحدهما: التّدريس والتّأليف. فهذان هما حارسا الأمن والسّلامة من ضياع العلم، والعاملان الصّدوقان في تثبيته ورسوخه، والشّواهد على ذلك كثيرة. وأمّا الكبر في هذا الباب، فلا دواء له إلا تركه.

وإنّ من الكبر أن ينتفع المرءُ بعلم غيره ثم يذمَّه، ويعرض عن ذكر مَن أفاده بشيء تعالمًا واستكبارًا، و«المتشبع بما لم يُعْط كلابسِ ثوبي زُورٍ»، كما ثبت ذلك عن النَّبيِّ ﷺ.

اقرأ .. ومعناها الجديد !!

بلغني نداءٌ من منبر الكاتب الأثير أحمد العرفج يطلب فيه القولَ الفصلَ في «اقرأ» ودعوى المفكر اللّيبي الصّادق النّيهوم: أنّ الأجيال تواطأت على

(١) السُّوق: معروفة، والإعناق: نوع من السَّير.

(٢) جمع ساق.

فَهم معناها فَهمًا خاطئًا، وأنّ المراد بـ «اقرأ» بلِّغ ونادِ، كما تقـول: فـلان يقرئك السَّلام، أي: يبلغك.

وأنا أردّ عليه، وأُبيِّن خطأ النَّيهوم ببراهين ثمانية:

أحدها: أنّه دعوى لا دليل عليها، وكم ممّن يـدّعي دَعَـاوى لا برهـان عليها إلاّ إعجابُ صاحبها بعلمه وفهمه، وثقته بعقله.

الثَّاني: أنّ كلمة «اقرأ» في لغة العـرب لا معـنى لهـا إلاّ فعـل القـراءة، وأصل معناها الجمع.

الثَّالث: خَلَط النَّيهوم بين «اقرأ» الثُّلاثي وبين «أقْرِئ» الرُّباعي، والفـرق بينهما ظاهر، فالأول من القِراءة، والثَّاني من الإقراء، ولم يقل الله: أقْرِئ، بل قال: اقرأ. والفرق بينهما كالفرق بين اسمَع وأسْمِع، وأمَّا قولهم: فلان يقرأ عليك السلام، أي: يُبلّغك؛ فهو بلاغٌ بالقراءة.

الرَّابع: أنَّ النَّبيَّ ﷺ حين أنزل عليه هذا اللّفظ، وقال له المَلَـكُ: اقـرأ، قال: ما أنا بقارئ. ومعناه على الصـحيح: لا أعـرف القـراءة، ولـو أريـد بالقراءة البلاغ لما صحّ هذا النَّفي في أذهاننا؛ لأنه لو قال لـه: بلِّـغ، فـردَّ عليه نبيُّنا ﷺ: ما أنا بمبلِّغ. لكان عنادًا، والنَّبيُّ لا يعانـد، وكـان في تلـك اللّحظة نبيًّا.

الخامس: لو كان المراد البلاغ؛ لقال: اقرأ اسمَ ربك، لا: باسم ربك.

السَّادس: القراءة في الآيات قُرنت بالقلم، والقلـم آلـة الكتابـة، وبـين القراءة والكتابة تلازمٌ، وإسقاط هذه الدّلالة التي هي دلالة اقترانٍ غفلةٌ أو عناد.

السَّابع: كيف قفز ذهنُ النَّيهوم إلى هذا المعنى الأعور في لفظٍ تكلَّم بـه كلُّ عربي، وفهمه كلّ عالم، وفيهم الصحابة والأتباع، وفيهم عقولٌ تـزن

الأرض، ولم يفهم أحدٌ منهم ما فهمه ؟

الثَّامن: كلّ ما ورد في القرآن من هذا اللفظ بجميع صيغه «قرأ، ويقرأ، وقرآن» لا يصحّ حَمل شيءٍ منها على المعنى المزعوم.

كلاً .. لا تطعْه - يا صاحب الحِبر الأصفر والبيان الأسفَر -، ولك منّي صادق التّحية وعاطر التّسليم.

الإرهابُ والتَّطرُّف !!

في مدينة النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، في الجامعة الإسلامية، في مؤتمر «**الإرهاب بين تطرف الفكر وفكر التطرف**» في جلسته الأولى، أتيح لي مشاركةٌ عارضةٌ ضربتُ فيها بسهم من أسرار اللّغة ودقائقها في معنى «**الإرهاب والتطرف**».

وممّا قلتُ فيه: العالَم اليومَ في نبإ عظيم في تعريف الإرهاب؛ إذ بلغت تعاريفُه أزيد من مئتي تعريف، وهي ما بين تعريف مطوّل، أو تعريف غير دقيق، وعرَّفتُه بتعريف مختصر، وهو: «إخافة البريء». انطلاقًا من المعنى اللُّغوي للإرهاب، وهو: الإخافة.

وقلتُ: إنّ هذه المادة (ر هـ ب) بحروفها الثّلاثة في جميع تقلباتها، تحمل معنى الخوف ومقدماته ونتائجه، فكلمة (بهر) فيها معنى الدّهشة وتحريك الشّعور، و(رهب) فيها معنى الخوف، وهو في المرتبة الثَّانية، و(هرب) والهروب يكون عن خوف، وهي على هذا التّرتيب (بهر، فرهب، فهرب) على ترتيبها في المعجم، الباء، ثم الرّاء، ثم الهاء.

وقلتُ في تعريفه الاصطلاحي: هو إخافة البريء؛ لإخراج الإرهاب المذكور في آية الإعداد في (الأنفال)؛ لأنّ الإرهاب فيها الإخافة، والغرضُ منه تحقيقُ الأمن بارتداع العدوّ وخوفه. وهذا محمودٌ عقلاً وعُرفًا

ودينًا وحضارةً.

وأمّا التّطرف: فهو - في فهمي - الوقوف على الطَّرف، بالخروج عن الجماعة، والشُّذوذ في الفكر والرأي، وهو كمن يعبد الله على حَرف، أي: على طرف؛ لأنه في حَيرة وشكّ، فهو يوشك أن يسقط، ومَن شذّ عن الجماعة سقط في النّار.

انتهى تعليقي، والجدير ذِكره أنّ الألسنة تواطأت على القول بأن تلك الجامعة جامعةٌ لا تغيب عنها الشّمس، فلها من كلّ بلد في العالم جزءٌ مقسومٌ، ولها قائدٌ رائد، وربّانٌ ماهر، ردّ إليها رُوحَها، وقَرّب إليها يُوحَها[1]، وسار بها إلى حيث تشرق الشّمس ولا تغرب.

الإنسانُ والنّاسُ .. !!

ليس من النّفاق في شيء أن يَظْهر المرء بأحسن ما يتَّسم به من خلق ويتخلق به فضيلةً إذا كان في مقام القدوة أمام من يرى فيه مثلاً وأسوة، وليس من المراءاة أن يكون الأستاذ بين تلاميذه متنزهًا عن العيوب المخلّة، جاهدًا في سَتر ما ابتُلي به من خصال مذمومة، فإذا كان الإنسان بين أهله وولده فذلك أدعى في أن يجهد في إظهار الفضائل وسَتر العيوب، واستقباحها، والمبالغة في ذمّها.

وما من امرئ إلاّ وفيه عيبٌ أو عيوب، ولكنه نقص في الفضيلة أن يعرف الإنسان من نفسه خَلّة سوء، ثم لا يجتهد في التّخلص منها واطّراحها .. ومن النّاس من يرى أنّ من الشّجاعة أن يكون الإنسان في الخَلوة والجَلوة سواء، وأنّ حبس النّفس على الفضيلة بين الناس ضعفٌ في المنهج وانفصامٌ في الخُلُق.

---

(١) شمسها.

ونحن لا نخالف هذا المعنى إذا كان حسنُ المخبر كالمظهر، والسّريرة كالعلانية، وأين هذا الرّجل منّا؟ وأيّ الرّجال المهذب؟ والأمر في هذا دقيقٌ، فهنالك فرقٌ بين صاحب الضَّمير الحيّ والنَّفس اللَّوامة الذي يعزم على التَّرقي في مدارج الكمال، وخلع رداء التَّقصير، وبين آخر لا يبالي بشيءٍ من ذلك، وإنما يظهر طيب الشمائل ليُمدح ويستُر بهذا عيبه ونقصه، ولا يهمه رأي نفسه في نفسه، فهذا انحدار بشرف النفس إلى قاع قَرقر، بريح صَرصَر.

البصائر الضالة !!

يركب أحدهم الرَّأي بلا خطام ولا زمام، أي: بلا عقل ولا شرع، ثم يقول: إنّما أردتُ الحقَّ والحقَّ أريد.

والله مطّلع على ما يضمره القلب، وقد يكون صادقًا في مقاله، ولكن في جوانح القلب ودواخله زوايا تَلُفّ مقاصِدَ أخرى حافَّةً من حول نيته، غاشيةً لمراده، كمحبَّة التفرّد، والشُّهرة، ونيل حظٍّ من حظوظ الدّنيا، والإشارة إليه بالسَّبق، وبما لم تأتِ به الأوائل، ليقال: إنّه كان، وذو مكان.

ولو سلّمنا أنَّ النية متمحّضة للحقّ، لما كان لصاحبها عذرٌ إذا كان مخطئًا؛ إلاّ إذا بالغ في طلب الحقّ، ولا يعذر مدّعي الحقّ وقاصدُه إذا قال قوله المخالف، والأدِلة من حوله تنادي بصوت عالٍ على خطئه وبُعده عن الحقّ، وإلاّ لعذرنا كلَّ أهلِ الأهواء الذين يعلم كلّ عاقلٍ أنهم لو وفَّوا الاجتهاد حقَّه، وتأمَّلوا في النُّصوص بعقل وتجرد، لما وقعوا في الضّلال والغَواية، وقد كان الخوارجُ يريدون الحقَّ، بآية صدقهم وصراحتهم، وما قَتَل من قَتَلَ عليًّا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أفضل النّاس في زمنِه، إلا ابتغاء

وجه ربّه الأعلى، وما أراد المخذولُ إلا الحقّ، كما صرَّح بذلك شاعرهم حين قال:

يا ضربةً من تقيٍّ ما أراد بها   إلا ليبْلغَ من ذي العرش رضوانا

فما كل من قال: (أنا أريد الحقّ) معذورٌ، وما كلّ من أخطأ الحقّ مأزور. والمأجور المعذور هو من أراد الحقّ، ولم يتبع الهوى، واجتهد في التحرّي، ولم يتعجل. وهو حينئذ مأجورٌ مرّتين إنْ أصاب، مأجورٌ معذورٌ إن لم يُصبِ الصَّوابَ.

التَّجريدُ الخفيُّ ..!!

أعرفه معرفةَ سلمان الفارسي لأبي الدَّرداء، ويحيى بن معين لأحمدَ بن حنبل، وأبي محمد ابن حزم لابن عبد البرّ، والذّهبي للنُّبلاء.

وصحبته مذ عرفني .. أقسَم ليغيّرنَّ حياته، واتَّخذ عند نفسه عهدًا ليكوننَّ أقوى وأقومَ قيلا، وليكوننّ رأيُ نفسه في نفسه هو أولَ ما يهمُّه ويعنيه، وليكوننّ لِيَده ما يشارك به في الآفاق، ولِقَدمه ما يغوص به إلى الأعماق، ولِرُوحه ما يغدو بهمته إلى معالي الأوصاف، ولِعَقلِه ما يروح به إلى إسقاط هوى السَّفْساف.

فلما قام من مقامه ذاك، قيل له: أنت على خير، فما بالك تقسو على نفسك، وتصبُّ عليها من سَوط العذاب، وتذيقها ألمَ الصّاب والأوصاب؟

فرجع إلى القائل بالتفاتة غضب وعتاب: أتقول: إني على خير، ما هذه الكلمة التي أنت قائلها؟! ألا تعلمُ أننا أُتينا من قِبلها وكنّا غافلين؟ إنّها هي التي حالت بين الهمم وأصحابها، وبين الأمم وأوصابها، حين نظرتْ عينُ الهمّة إلى مَن دونها في دينها، وإلى مَن تحتها في علمها، أعجبها حالُها ورضيت، وأذنت لرضاها ونيَتْ.

يا هذا !! إنّ داءك العُضال أن تقف في وسط الطريق، على منزلة من منازل السائرين، تحسب أنّها سبع منازل وهي إلى السَّبعمئة أقرب، وتظن أنّك سرت إلى الغاية وسبقت الغير، وما أنت بسابقٍ ولا باسِق.

إنه بئس السّير على بئس العَير، وإنه ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣].

إنّما مثلُ من تاه في مكانه برضاه عن نفسه مَثَلُ نملةٍ تائهة في جِرْمٍ مستدير، تعود إلى مجراها، تحسبه منتهاها، حتى تبقى يومها كلّه دوّارة.

وأمّا الطّامح الشّمِّير، فدرّاكُ غايات، سيّارٌ إلى مقصده يطلبه حثيثًا، يقول في تَسيارِه وسَعيه: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم].

الخَصْمَانِ..!!

لا تظن أنك حين تختصم مع من تعاديه إذا أصابته مصيبة في نفسه أو ماله أو أهله أنّ ما أصابه كان انتقامًا من الله لك، وأنّه جُوزي بسبب معاداته لك، وأنّ الله يحبك، فقد تكون أنت أظلم وأطغى، فإن كان هو الظّالم فقد تؤجل عقوبته في الآخرة، وقد تُجزَى بعافية تُمنَحُها من دونه، أو مالٍ تُرزقه، أو ولد صالح، أو درءِ مصيبة عنك، أو نصرٍ لك عليه ولو بعد حين، أو عقوبةٍ خفية لا تعلمها، وكم من مُعاقَب بعقوبة لا يدركها ويحسب أنه على شيء، وأنّه على خير، وهو في مراتع الغَفلة، لا يدري ما السّماء تمطر عليه تلك اللّيلة.

وشعورُ الإنسان وحدَه غير كافٍ في موافقة الحقائق، وفي أنّ مولاه سبحانه رضي عنه أو أهانه، وقد بيّن الله في كتابه أنّ الإنسان إذا ابتلي بالخير قال: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥]، وإذا ابتلي بالشرّ قال: ﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٦]، فقال الله: ﴿كَلَّا﴾ أي: لا هذا ولا هذا؛ لأن الله يعطي ويمنع من شاء ما شاء.

ومعنى ﴿كَلَّا﴾ فيما يظهر لي: النّفي المؤكد بالتّكرار مع زجر، فهي مساوية لقول القائل: لا، لا. ولا يقول ذلك مَن يقوله إلاّ زاجرًا .. وقد وعد الله بنصره صنفين من عباده، أحدهما: مَن نصر دين الله، والثاني: المظلوم. وهو على قسمين، الأول: المظلوم ابتداء، والآخر: مَن أخذ حقّه من ظالمه سواء بسواء ومثلاً بمثل، فبغى عليه خصمُه، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠]؛ لأنه يصبح بعد أخذ الحقّ له كالمظلوم ابتداء، لكن الوعد بنصره أقوى من الوعد بنصر من ظُلم أوّلاً؛ لأنّه ظالم، ولأنه رافض للعدل والمساواة، و يا له من وعد مطمْئنٍ مخيف.

وهذه الآية، وآية نصر المظلوم، وآية مَن ينصر الله ورسله، كلّها في سورة الحج، وذلك شأن المولى، وقد قال في آخرها: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨]، وأمّا من اتخذ مولًى له دون الله؛ فقد قال الله عن مولاه في أوائل السُّورة: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١٣].

الخوفُ والحزَنُ .. !!

الخوف ممّا يكون والحزن على ما كان، لا يسلم منهما أحدٌ في الحياة الدّنيا، وإلاّ لما امتن الله على عباده بأنّهم في الجنّة لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، وأنّهم لا يسمعون لغوًا ولا تأثيمًا، ولا يرون فيها شمسًا ولا زمهريرًا، ولا يمسُّهم فيها نصبٌ ولا لغوب، وكلّ هذا في الدّنيا.

ونفيُ حصول الخوف عليهم أبلغ من نفيه عنهم، أي: لا يخاف عليهم أحد من أوليائهم من الملائكة، ولا يخاف عليهم أنبياؤهم، وأمّا صديقهم وأرحامهم فمن كان معهم فله الأمن، ومن كان في النّار فمشغولٌ بنفسه.

والحزن على ما فات أشدّ ما يكون من صاحبه، وليس كالخوف فقد

يخاف المرء على غيره، ومَن يخاف عليه في أمن لا يحسّ بشيء من ذلك، ولهذا لم يقل في الحزن: لا حزن عليهم، أو لا يحزن عليهم أحد.

وللخوف والحزن دواء شافٍ كافٍ في صيدلية الإسلام، أرشد إليه النّبيُّ ﷺ، وهو الدّعاء المعروف: «**اللّهمّ إنّي أعوذ بك من الهمّ والحَزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والخوف ...**»، وكذلك حديث: «**اللهم إنّي عبدك وابن عبدك ...**».

وهذان الدُّعاءان خيرٌ من دَندنة الكُتَّاب الذين كتبوا في هذه المعاني، ولم ينتفع مَن قرأها إلاّ انتفاعًا مؤقتًا، ككتاب (دَع القلقَ، و ابدأِ الحَياة) ونحوه من كتب الإسلاميين المعاصرين، وإنّما يخرج قارئ مثل هذه الكتب بأمرين أو أحدهما، وهما: أخذ الحياة بطولها وعرضها ونسيان الآخرة، والثاني: عمل الطاعات وفعل الخيرات ليسعد بها في الدّنيا ويذهب حزنه وهمّه، فيحافظ على الصلوات، ويكثر من ذكر الله، ليذهب همّه وحزنه، ويوسّع له في رزقه.

وهكذا سائر العبادات، يؤدّيها لمثل هذا الغرض، ولو لم يكن ذلك ما صَدّق ولا صَلّى، ولا صام ولا زكّى، ولا فرض الحج إلى بيت الله الحرام.

الدرس الأول !!

كم في كتب العلم أو مناهج التّعليم من مسائل وتقسيمات لا فائدة منها إلاّ ضياع الوقت، وإكلال الذّهن ممّا لا طائل منه. تجدون في بعض المصنفات - مثلاً -: أركان الاستعاذة أربعة: ١- صيغتها «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». ٢- مستعيذ. ٣- مستعاذ به وهو الله. ٤- مستعاذ منه وهو الشيطان.

تقسيمٌ لا فائدة منه، لو أنصفتُ لقلتُ: إنّه نوع من العبث الـذي دخـل في تصانيف العلوم الشرعية والعربية.

ومثل هذا نستطيع أن نقوله في كلّ شيء، فنقول في البسـملة، أركانهـا أربعة: صيغة البسملة، ومبسمل، ومبسمل به وهو الله، ومبسمل لـه وهـو السورة من القرآن أو غيرها.

بل هو صالحٌ لكلّ لفظ ينطق به المتكلم قصدًا، فما من منطوق إلاّ ولـه ناطقٌ وصيغةٌ ينطق بها، وغرض يقال من أجله. وكأيّن من مسائل شُقّقت، وعلومٍ وُسِّعت لم يكن لها من نفع إلاَّ حشو الأذهان بما لا يكسـبها علمًـا يزكيها، ولا أدبًا يهديها.

وما أبرئ نفسي، فقد كان أول درس كُلِّفْتُهُ أيام دراسـتي في الكليّـة أن ألقي درسَ التَّفسير لطلاب المرحلة الثَّانوية بالجامعة، فلمّا توجهتُ تِلقـاء الفصـل جلسـتُ جِلسـة وَقـار، علـى طريقـة الكبـار، ولم أحمـل دفتـرًا ولا كتابًا ولا ورقةً، فقـد دبّـرت تحضـير درسـي بليـل، وسـألتُ سـؤالَ العارف: أين وصلتم؟ فقالوا: عند قولـه سـبحانه: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ﴾ [النمل: ٨١، الروم: ٥٣]. فانطلقتُ أشرح، وأقول ما جمعتُ ووَعَيتُ، وأتلو الأشعارَ والفوائدَ، والقواعدَ والشَّواهدَ، وصلصـل جـرس الحِصَّـة والدَّرسُ لم يستوف الكلامَ عن الباء في ﴿بِهَٰدِي﴾، وخرجتُ والإعجـابُ والدّهشة تملآن أو تملأ ما بين جوانحهم.

ولكنني عرفتُ بعد ذلك أنّه لا ثمرةَ لمثل هذه الدُّروس على هذا النَّهج إلَّا أن تكون دهشةً في قلب الطالب تـورث تعجبًـا أو حـيرةً، واتَّضـح أنَّ الدّرس كان نحوًا وصرفًا ولغةً، لا درسَ تفسير، فلينتفـع بمثـل هـذا مَـن شاء، وأبلغُ نصح ما كان عن تجرِبة (بكسر الرّاء).

الزوجُ البائسُ[١] !!

قال رجل لامرأته - وقد بلغ الشّقاق بينهما مبلغًا -: أعرِضُ على حضرتكِ أمرًا. قالت: ما هو ؟ قُلْهُ بسرعة. قال: تطيعينني شهرًا، وأطيعك شهرًا. قالت: نعم؛ بشرط أن أكون أنا مَن يطاع في الشّهر الأول. قال: رضيتُ، فلعل طاعتك لي من بَعد تكون كطاعتي، أو قريبًا منها.

فقد كانت تلك المرأة (رَجُلَة!) قوّالة فعالة، أمّارة لوّامة، عاملة ناصبة، عَنودًا غضوبًا، فأقبل الشّهر وامرأته قائمة، قالت: قُمْ. قال: إلى أين؟ قالت: إلى المطبخ .. هذه المغسلة، وهذا الماعون، ودونك الماءَ والصابونَ، وهذه الثّلاجة، وهذه الحوافظ، فيها الملح والسكر، والشّاي والبُنُّ، والرّز والدّقيق.

قال: إنّما أردتُ الطّاعة في المعروف، ولم أرِدْ أن نتطاوع في مثل هذا، فلي عملي ولكِ عملك.

قالت: أنتَ لم تشترط، وأطلقتَ الطّاعة، فلا موجبَ للخروج عنها.

وألزمتْه بالأدلة العقلية والأقوال النقلية، ولمّا لم يجد له مخرجًا ولا مفرًّا لبس مُلاءتها التي تلبسها للمهنة، وفعل ما أمرتْ به النّهار كلّه، حتّى إذا أقبل اللّيلُ أقبل ومعه الويل (جدول أعمال ينوء بالعصبة أولي القوة، نصفها «افعل»، ونصفها الآخر «لا تفعل»).

قال: ولم تترك في ليلنا ولا نهارنا شيئًا خالفتُها فيه في ما مضى من حياتنا معًا إلّا أمرتْني به، ولا شيئًا تحبّه وتركتُ أنا فعلَه إلّا ألزمتني بفعله، ولا شيئًا تكرهه، وأحبّ فعلَه إلّا نهتني عن فعله، ولمّا أوشك شهرنا

---

(١) قصة حقيقية حدثني بها ابنهما.

- أستغفر الله! بل شهرها - على التقضي، ولم يكن شهرًا بل كان دهرًا، قلتُ لها: يا أمَّ فلان! نحن اليوم في خاتمة الشّهر، فانظري ماذا قدَّمتِ ليوم غد، ألا تعلمين أنه أول يوم من شهرنا الذي تطيعينني فيه؟

قالت: أعلم ذلك، ولكني أسألك سؤالاً؟

قلتُ: اسألي.

قالت: كيف كانت حياتنا في هذا الشّهر؟

قال: فلمّا بدهتني بسؤالها لم أدرِ ما أقول، وهجم على ذهني جيوش من الحَيرة، وقلتُ لنفسي: إن أنا أجبتُ بما لا يوافقها غضبت، وألقت عهدها وتخلّت، ولكني سأجاريها وأضحك على عقلها حتى لا تمنعني من شهري، فقلتُ لها: كان شهرًا جميلاً وأيامًا سعيدة.

فَصَرَخَتْ بصوت عالٍ: يا أيّها الـ !! إذا كنّا قد سعدنا في هذا الشّهر، وعشنا شهرًا كشهر العسلِ، فلماذا نجرّب حياة أخرى؟!

وضحكتْ! فصاح الرّجلُ غاضبًا، وأشهر سلاحَه (الطلاق)، فكُسِرَ ضِلْعُها، فتفرَّقا، فقال بعض الصِّغار: أين أبي؟ وقال بعضهم: أين أمي؟![1]

الشَّمسُ .. قبلَ الفجر .. !!

من الناس من يَظنُّ أن مظهرَ كمالِ التَّدين الذي يظهرُ به في هيئته ولباسِه كافيًا ليكون متكلِّمًا في الدّين، وباحثًا في الشّريعة، أو مفتيًا في دقيق أحكام الدّين وجَليلها، ويَرمي بنفسه في محارات العقول التي لا يتكلَّم بها

(١) هذه قصّة واقعة وليست من نسجِ الخيال، ولا يزال الزّوجُ حيًّا، وقد سلخ التسعين من سني عمره، ولا تزال المرأة حيّة تسعى.

ويخوض في بحارها إلاَّ الرّاسخون في العلـم، ومنـهم مَـن يحملـه علـى استسهال ذلك نشأتُه في بيت علم وإن لم يكن من أهله.

ومن الخوادع التي تخدَعُ صاحبها وتخدعُ غيرَه مشاركتُه في الوعظ، ثم إذا ما وقع في مقام التَّصدُّر لم يجد محيصًا من الرَّدِّ على أسئلة المستفتين في كلِّ قضية تضجّ بها السّاحة، وآية ذلك أن لا تسمع منه: لا أدري.

نعم، للإنسان أن يتكلم في قضايا الإسلام التي يدركها أوسـاط النـاس بعقولهم؛ لأنهم مسلمون يمارسون معاني الإسلام جملة في حياتهم، وله أن يخوض في دقائق مسائل العلم إذا كان تحصيله للعلوم يؤهلـه لـذلك، وأخذ عن نحارير العلماء، وأتقن الوسـائل في علـوم الشـريعة والعربيـة، ولو كان تخصصه في الهندسة والمساحة، أو المحاسـبة والإدارة، أمّـا أن يخوض في ذلك لمجرد تدينه فلا يكفي.

وكائِنْ ترى من صامتٍ لك معجِبٍ بهيئته وشـارته، وسمتـه وإشـارته، مستور تحت بيانه بلسانه أو بنانه، فإذا أبانَ بانَ، كمثل ذلك الرّجل الـذي يذكر أنه كان يحضر مجلسَ أبي حنيفة، وله هيئةٌ مَهيبة، عمامـة كـالبرج، وأكمام كالخُرج، ونظرات واعدة، في صمت وسَمت، وكان له محلّ في قلب الإمام، فلا يمدّ رجلَه بين يديه حياءً منه، وما هي إلا أيام حتى كُشف الغطاء وظهرت الحقيقة؛ إذ قال مُقاطِعًا أبا حنيفة، وهو يقرر مسألة قضـاء ركعتي الفجر بعد طلوع الشمس، قال ذلك الشّيخ: فما الحكم في هـاتين الركعتين إن طلعت الشَّمسُ قبـل الفجـر؟ فقـال وقتئـذ أبـو حنيفـة قولتـه المشهورة: الآن آن لأبي حنيفة أن يمدّ رجليه.

وصيّرها مثلاً، ولا غروَ، فالحكماء متّفقون على أن عقل المرء مخبـوءٌ تحت لسانه.

الطَّائِفُ والمطافُ .. !!

قدّم الله (الطائف) على غيره في القرآن في موضعين من كتابه، قال تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

وللعالِم المتدبر أن يفهم من تقديم الطّائفين على العاكفين والمصلين أنّهم أحقّ بالمكان الذي هو حول البيت من غيرهم، إذا ازدحم النّاس وضاقت بهم ساحة البيت، وهم أقرب النّاس إلى الكعبة وألصقهم بها، وهم الذين يلامسونها، وعبادتهم متعلّقةٌ بتقبيل ركنها ولمسها والإشارة إليها، ولا يكون ذلك إلا بقرب أو رُؤية.

وأمّا العاكفون فيه؛ فكلّ مكان فيه صالح للعكوف، وكذلك الصّلاة للقائمين والرُّكع السُّجود، والبدء بما بدأ الله به في كتابه حين لا يكون موجب آخر يقتضي تركه منزعٌ أخذ به النَّبيُّ ﷺ حين أراد السَّعي، فإنه بدأ في سعيه بالصَّفا، وقال: «نبدأ بما بدأ الله به»؛ لأنّ الله قال: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨].

ولا يُعترض بما أمر به النَّبيُّ ﷺ أمَّ سلمةَ بأن تطوف من وراء النّاس؛ لأنها رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا امرأة على راحلة، والنّاس يصلون، ولا طائفَ حينئذ.

وأريدُ أن أصل من خلال ما تقدّم في الكلام الأوّل أن أبعث رسالة في ثوب اقتراح أدعو فيها إلى النّظر في توسعة صحن المطاف؛ لتخفيف التّزاحم، ولأنّ الطائف أحقّ بهذا المكان من غيره، ولا تعارض بين الطَّواف والصَّلاة؛ لأنه لا طواف حين أداء الصَّلاة، والطائف بالبيت يمشي وغيره ماكثٌ في مقامه، وفي اتّساع المطاف مصلحةٌ للطّائف لا تضرّ بمصلحة القائم والعاكف، وممّا يتفرَّع عنه أيضًا ويزيده وضوحًا: أنّ الطّائفين أولى بما حولَ المقام حين طوافهم من المصلين خلف المقام

ركعتي الطواف. والله أعلم.

القَرَعْبلانَة !!

اسمٌ كبيرٌ، بل هو أكبر اسم في ديوان اللّغة لمسمًّى صغير، بل هو من أصغر المسمَّيات من المخلوقات .. إنّه دُوَيْبَّةٌ كالقَملة، يحمل هذا الاسم أحرفًا ثمانية، والقاعدة تقول:

ومنتهى اسمٍ خمسٌ ان تجردا   وإن يُزَدْ فيه فما سبّعا عَدَا

وأمًّا هذا فقد عَدا، ولا ندري كيف وضع الواضع هذا الاسم، ولا نعلم السّبب الذي أطال به الاسم، ولعل واضعه أعرابيٌّ ملكت عليه مذاهبه، وأوسعَته أذًى، وحمَّلته قذًى، وملأته رعبًا.

وللمتفكرٍ أن يأخذ من هذا الاسم دلالات، أقتصر على ذكر واحدة منها، هي: خداع الألفاظ، فكم من مخادع باللّفظ، أو منخدع به حين يجد الاسم كبيرًا، أو صغيرًا، أو قويًّا، أو ضعيفًا، فيستدلّ بذلك على كِبر المسمّى، أو صغره، أو قوته، أو ضعفه، وكم ممّن يسمّي محيي الدّين، ونور الإسلام، أو جماله، ولا إحياء ولا نور ثَمَّ ولا جمال.

وقد جاوز الإمام ابن حجر العسقلاني حدَّ الظَّرْف حين استدلّ على أنّ الاسم غيرُ المسمَّى في قوله:

الاسمُ غيرُ المسمَّى   والحقّ أبلجُ واضحْ

فإن تشككْت في ذا   فانظر لسيرة صالحْ

وسئل أحد المغفلين: أيُّما أفضل معاوية أم عيسى ابن مريم؟

فقال: لا إله إلا الله .. أيساوَى بين كاتب الوحي ونبيٍّ النصارى؟!

ولو قال: نبيٍّ الله، لما كان لجوابه معنًى في الظّاهر ولا في الباطن، كما يقال: فَرسُ الجبان، وقد يكون خيرًا من فرس غيره، ولكن المضاف إليه حقَّر من شأنه.

ويشبه هذا في بعض الوجوه حِيَل الخصوم في اختيار الألفاظ وخداع المخاطب بألفاظ الاستعطاف، كما فعل أحد الخصمين في قِصَّة داوودَ حين قال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [ص: ٢٣].

وأصل دعواه: أخي أخذ نعجتي، ولكنه أدخل في دعواه ما يُوهم أنه مظلومٌ حين هَوَّل بما يملكه خصمه، ولهذا أدخلها داوودُ في حيثيّات حكمه، فقال له نبيُّ الله داوودُ: ﴿إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ [ص: ٢٤].

وهو كمن قال لك: هذا عنده مليون ويريد أخذ ريالي، فمقدِّمته الأولى استعطاف يُذهل الحاكم عن الحكم بالحقّ إذا عَجِل في الحكم، وذَهَل عن لَحن الخطاب.

اللقاءُ الأولُ . . !!

من النّاس من يعجبك قولُه في اللِّقاء الأوّل؛ حيث يُلقي على سمعك نفيسَ ما عنده من نوادر العلم، وجواهر الكلم، ودقيق المسائل، فإذا ما فضّ وعاءه، وألقى ما في جَعبته (بفتح الجيم، ولا تقل: جُعبته، بالضم) وخَرجتَ به عمّا يحاضر به، تبيَّن ما لديه، وتناقص حتى صار عييًّا.

وإنّما يُعْرَفُ العَالِم بالسُّؤال، وكَأيِّن من عالِم تراه لا تحضر شواهدُ علمه عند لقائه، فما هو إلاّ أن يُحرَّك بالسُّؤال فيتفجر منه بحرٌ لا تكدِّره الدِّلاء، ومنهم من تظهرُ ملكتُه، وقوةُ علمه، وثاقبُ فكره، وغوصُه على الحقائق، وكشفُه للدّقائق، إذا كتب، أو بحث.

والرّاسخ في العلم كلما جالستَه وباحثته وأمعنتَ في استخراج دُرَره، وجدتَ منه عليه شواهدَ، تزيدك فيه كلّ يوم معرفةً ودليلاً، وإنّما مثله مثلُ كنز على صورة هَرم طويل، كلما امتدّ نظرك إلى آخره، وجدتَ فيه مُتّسعًا، أو كبئر عميقة، كلما أعمقتَ فيها، وجدتَ لنواحيها عيونا تتفجر، ووجدتَ مِن تحت الغطاء، أنهارَ عطاء، أو كصيِّب من السّماء، أوّله طلّ، وآخره وَبل.

والطَّل قد يبدو أمام الوَبلِ والفضل للوابلِ لا للطّلِّ

والعالم لا يعرفه إلاّ العالم؛ لأنه مثله، ويعرف الجاهل؛ لأنه كان جاهلاً من قبل أن يعلم. وأمّا الجاهل - كما قال أفلاطون - فلا يَعرِف العالم؛ لأنه لم يكُ عالمًا.

وقال لي أحدُهم عن أحدِهم: ما رأيتُ عالمًا مثلَ فلان.

قلتُ: كيف علمتَ ذلك؟

قال: أما رأيتَه حين يتكلم وحين يحاضر كيف يرفع من صوته؟ وكيف يرفع في إعرابه ويخفض؟ وكيف ينصب ويجرّ؟ وكيف يجزم ولا يجزمَ؟

فقد جعل آية العلم، وعلامة العالم، هو ما ذكره من كثرة الكلام، ولو كان لا يرجع إلى محصول، ومن سَردِ الألفاظ، ولو خَلَت من صحيح المنقول، وصريح المعقول.

هذا صنف ممّن يَصدُق فيه قول الشّاعر (في جبَل):

يحسبه الجاهل ما لم يعلما شيخا على كرسيِّه معمَّما

المصافَحةُ باليدينِ !!

تصـــافحٌ باليـــدِ واليـــدَينِ أخرجـــه البخـــارِيْ مـــرَّتينِ

هذا البيتُ من روائع ما أفادني به شيخنا العلامـة أحمـدُ (بضـم الـدال مشدّدةً) الشنقيطيُّ (ت ١٤٢٨هـ) رحمه الله، وأنكـرتُ حـين سمعـتُ أنّ يكون ذلك في كتاب البخاري (الجامع الصحيح).

ثمّ تبيَّن بعد البحـث والتّأمّـل أنّ المـراد بتصـافح اليـدين هـو مـا رواه البخاريُّ: عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «**علّمني رسول الله ﷺ التّشـهد، كفّي بين كفّيه**» أخرجه في غير موضع من (صحيحه)، أحدهما: تحت باب (المصافحة)، والآخر: تحت باب (الأخـذ باليـدين). وفي بعـض النُّسـخ (باليد)، ثم قال: (وصافح حمادُ بن زيد ابنَ المبـارك بيديـه)، وذكـره في كتابه (التاريخ) مسندًا إلى حماد، كما أورده ابـن حجـر بعـد أن ذكـر أنـه وَصله غنجار في (تاريخ بخارَى): عن البخاريِّ، عن أحمد بن خلف، عن مالك: أنّه رأى حمادَ بن زيد يصافح ابنَ المبارك بكلتا يديه.

وصنيع الإمام البخاريِّ - وهو الغوّاص في عميق المعـاني - يشـير إلى هذا المنزع بتلميح، يجـنح إلى التّصـريح، واكتفـى بالمصـافحة في أحـد البابين، ولم يذكر اليدين، وصرَّح باليـدين في البـاب الآخـر ولم يصـرِّح بالمصافحة، واكتفى بالأخذ، وهو من دقّة فقه البخـاري وعميـق فهمـه، يشير إلى أن مَن فعل ذلك فله منزَع، فلا لوم عليه، لا على أنـه أصـلٌ في صفة المصـافحة، فالهـدي العـامّ وسـيرة السَّـلف الطيّـب يفصـحان عـن التّصافح باليَمينين وحسْبُ.

ثم إنَّ للناس بعد ذلك طرائق مختلفة، فمنهم من يشدّ عضد أخيه بيده، أو يسندها إلى ذراعه، ومنهم من يقبض على اليد بقوَّة كأنـه يعصـرها، أو

يهزُّها كأنّما يزنُها، أو يُرعشها كأنما ينفضها، ومنهم من يأخذ بيد أخيه يجرُّها إليه، أو يقبض على راحته ثم إبهامه ثم راحته، ومنهم من يُودِعك أصابعه لتنام كالعصفور بين يديك، وأبعدُهم عن رُوح المصافحة وحقيقتها من يمسّ راحتك على عَجَل، كأنك السَّامريّ صاحبُ موسَى، هكذا من غير نظرة ولا كلام ولا تبسُّم يمحو به سَواد فعلته.

وكان من خُلُق النَّبيِّ ﷺ أن لا يَنْزع يده من يد مصافحه حتى ينزع الآخر، والنَّزع لا يكون إلاَّ عن تصافح بقوةٍ وإحساس، لا بمجرد وضع ومساس، كما يفعله كثيرٌ من الناس.

الشَّهادَةُ المَعيشيَّة !!

مِن الناس مَن يولد وتولد معه شهادته المعيشية، فمَن وُلِد بصوت حسن أو مَلَكةٍ من الملكات التي يحتاج النّاس إلى قطف ثمارها؛ فقد يكون له ذلك خيرًا من كل شهادة عالمية (بفتح اللاّم وكسرها).

وللشّعراء منزلةٌ في مدارج التّاريخ وشُهرةٌ غلبت شُهرةَ الحكماء والفلاسفة، وسبقوا بشعرهم بحسب حظوتهم لدى ممدوحهم، ولو كانوا من الماجنين.

والملكة إذا كانت كاملة لا تدع صاحبها، بل تثور عليه وهو في صباه، فتجذبه إليها، فإما أن تُردِيَه، وإما أن تُبْدِيَه، فإن كانت متوسطة أو دون ذلك وسقاها بما ينمّيها ويمدّ أصولَها قويتْ وصارت ملكةَ صُنع وطَبْع، وقد يغلب أحدهما على الآخر، ويظهر أثر ذلك في موهبته، وكأيِّن من صبيٍّ ضُيِّعتْ موهبتُه بأخذه إلى غير ما يَنزع إليه وإلى غير ما يُسِّر له أولاً، فلا تزال ملكاته تضعف حتى تموت، ولن يحييها إلاّ من يحيي العظام وهي رميم، وإذا بالذي كان يمكن أن يكون شاعرًا أو خطيبًا أو كاتبًا أو

راسمًا أو خطاطًا أو مستشارًا، قد صار سبّاكًا أو حدّادًا أو طَلّاءً أو خياطًا أو خبّاطا أو حارسًا.

ولا نقصد من ذِكر هذه الحِرَف الشّريفة الذمّ أو التّحقير، فضروريّ الحياة وكمالها قائمان على هذه وأمثالِها، ولهذه الحِرَف من الكسب المعيشي اليوم لِمَن أتقنها مجالٌ رَحب؛ لأنّ قيمة المرء ما يُحسنه، وقيمة ما يحسنه حاجة النّاس إليه، والنّاس أحوج إلى الصّانع والخائط والسابك، والكسب من هذه الحرف خيرٌ لهم من الشّهادات العالمية، وبرهان ذلك أنّ صاحب الحِرفة مُستغنٍ بكسبه منها، وصاحب الشّهادة قابعٌ في بيته.

والمعادلة التي أريد الوصول إليها، هي: إذا كان الطالب لا هَمَّ له إلّا الشَّهادة، وضيَّع على نفسه صدق التَّوجُّه، ونيةَ إحياء العلوم، ورفع الجهل، والعمل بما عَلِمَ، وكان هَمُّه الأوّل هو تحصيل الشَّهادة طلبًا للعيش، فالأولَى له أن يجتهد في تحصيل حِرفة من الحِرَف في بِضعة شهور تحقق له هدفَه، فهي خيرٌ له من ضَياع بِضْعَ عشرة سنة يجهد فيها نفسه وأهله وبلاده.

المَوَظَّفونَ .. !!

العاملون على أربعة أقسام :

الصّنف الأول: العاملون في هدوء وصمت، الذين يبنون في ثقة ويعملون في اطمئنان، يرى النّاظر ثمرة دأبهم واجتهادهم في الواقع أكثر ممّا يرى عملَهم في الظّاهر، وهي الطَّريقة المُثلى، والسِّيرة الفُضلى، التي يسلكها المخلصون، والمصلحون الصّادقون، أصحاب الضَّمير الحيّ، وجهاز المراقبة الدّائب.

والصّنف الثّاني: أصحاب حركة وبركة، يظهرون عملهم وحركتهم

ليعرف عملهم ويقتدي من حولهم بهم، أعمالهم ظاهرة، ونتائجها باهرة، وهي طريقة النّاجحين الذي هم إلى الشُّهرة ساعون، وإلى المعالي مسارعون.

الصّنف الثّالث: من يذهب ويجيء ويستجيش ويلتجي، يعمل، ولكنه يخبط خَبط عَشواء، فلا تجد إلاّ جَعجعةً بلا طحين، ولا ترى غير تخبط وركض، عمل كثير في ما يظهر للناس، والفائدة قليلة، والثّمار لا تزهو، والنّتاج خِداجٌ غير تمام، وهي طريقة المُرائين، الذين يحبُّون أن يحمدوا بما لم يفعلوا.

والصّنف الرّابع: هم أصحاب أعمال لا ترى فيها حركة ولا بركة، وإنما مَثَلُ صاحبها مثلُ مَن قال الله فيه: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾[النحل: ٧٦].

فهذه أربعُ طرائق مختلفة، لكلّ طريقة منهم جزءٌ مقسوم.

وإنّا لنرجو أن يكون أصحاب المدرسة الأولى والثّانية هم الأعْلَيْن في عددهم، كما كانوا في الدّرجات العُلَى في منازلهم، فهم العاملون بما ينفع النّاس ويمكث في الأرض.

ولا كثّر الله سواد أولئك الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

النّحو الباكي !!

النّاظر في مناهجنا في النّحو العربي وفي تدريسه في الأعم الأغلب، إن كان ينظر بعين النّاقد لا الرّاقِد يرى فنونًا من التّعاجيب المؤلمة لنفوس الغيارى أكثر من إيلام المسألة الزّنبورية التي قتلت سيبويهِ فيما زعم الزّاعمون.

سألتُ طالبًا في المرحلة (الثانوية) بعد أن شكا من صعوبة هذه المادة:

أيّما أيسر لديك: تعلّم قواعد النّحو أم تعلم لغة أجنبية؟ أجاب - بلا تردد -: تعلم لغة أجنبية، بل تعلّم لغتين أيسر وأسهل !

ألم يأنِ للذين حُمِّلوا التّعليم أن يفطنوا إلى مواضع الخلل، فيستووا لإقامة الصِّلات بين الطالب والمطلوب ؟

بلى إنّ فريقًا منهم ليُعَلِّمون ولا همَّ لهم إلاّ حشو أذهان التّلاميذ بمعلومات بطريقة تفسد نظام تفكيرهم وترتيب محفوظهم، وإنّ منهم لفريقًا درس كما درس أولئك التلاميذ فخرج بمَلَكة هزيلة، وكان المخوِّل لتدريسه الشّهادة وحَسْبُ.

وآخرين من دونهم حفظوا ووعوا، ولكنهم في تدريسهم وتلقينهم في وادٍ والتّلاميذ في واد، هم في وادي السّباع، وفن القول والتّدريس ساخطٌ عليهم في الوادي المقدّس. وقد يكون الخلل في المنهج، ولعلّ بعض واضعي المناهج يظن أنّ الكتب الكبيرة العسرة أنفعُ للطالب؛ لأنّها ترقى به إليها، وأنّ الكتب الميسرة الصّغيرة تُضعف من هِمّته وينحطّ إليها، ولكنَّ مَن يرى هذه الطريقة غالطٌ أو مغالط، وناظرٌ بعينٍ عَوراء، نظر إلى الوسيلة، ولم ينظر إلى مُبتغيها، ولَحظَ الغايةَ بعينٍ وطالبها بعينٍ أخرى.

لدينا في جامعة أمّ القرى تُدَرَّس (ألفية ابن مالك) لطلَّاب معهد اللّغة العربية للنّاطقين بغيرها، في ساعات لا تكفي لدراسة عُشرها؛ لطُلَّاب تعجز مَلَكاتهم عن فَهمها وضبط معانيها، مع علوم أخرى تُدَرَّسُ قبلها وبعدها، بل هم عاجزون عن قراءة ألفاظها قراءة صحيحة.

فإن قال قائل: فكيف ينجح طلاب المدارس ؟

قلت: ينجحون بمذاكرة مرهقة، وبتركيز المدرس وإشاراته إلى مسائل بعينها، وبالمساعدة والرّحمة، أو بضَرَبات الحظّ، كما كنتُ أنجح أنا في

مادة (اللّغة الإنجليزية) وأنا لا أفقه منها إلاّ ما تفقهه جدّتي أمُّ أبي - عليها وعلى اللّغة العربية رحمة الله -.

الهوَى الغَلاَّبُ !!

إذا لم يغلب العقلُ الهوى وقع صاحبهما في الهَلَكة، والعاطفةُ من أمشاج الهوى.

والشُّعراء لهم نصيبٌ من العاطفة كبير، وإذا هاجت عاطفتهم واحتدم خاطرهم بالشّعر طارت بهم عاطفتهم إلى تصوير الحقائق فوق ما هي عليه، أو دون ما هي عليه؛ لأنّ منهم من يغلب على عاطفته الرِّضا، ومنهم من عاطفته غضبية، وأكثرهم يجمع بين العاطفتين.

ولا يكون الشّاعر قاضيًا، ولا ذا منصب منوط بالعقل والعدل، ولا أعني بذلك كلّ شاعر، ولكن المراد الشّاعر الذي غلبت شاعريته كلّ مَلَكة عنده ولم يبق من غيرها إلاّ بقية من ذماء، وأمّا مَن كان الشّعر إحدى مَلَكاته ولم يسلبه ميزان عاطفته وحكمته فهذا كسائر النّاس.

وفي التّاريخ ألسنة تشهد لشُعراء برعوا في أعمالهم، والرّسَّام ليس كذلك، بل الغالب في الرّاسمين الأناةُ والتَّعقل والحكمة، وملكتهم متولّدة من صحة تصور وقوّة تخيّل، فهم أقرب للحقائق ووضع الشّيء في مكانه.

ومن قال: إنّ الشّعر صورة ناطقة، والصُّورة شِعر أبكم لم يجافِ الحقيقة؛ لأنّ كلاًّ منهما شاعر بشعور، غير أنَّ الشّعور نوعان، صادق وكاذب.

وقد قيل: أعذب الشّعر أكذبه، وأجمل الصّور أصدقها، والواقع شاهدُ صدق بذلك على كلّ من الفريقين، ولا أعرف شاعرًا عُرف بالشِّعر إلّا كان كذلك، ولا أعرف رسامًا إلاّ هو كذلك أيضًا.

اليومَ عندَكَ دَلُّهَا !!

أكتبُ العويصَ من مسائل العلم أو الفصل من فصول البحث وإنَّ حاجبي ليسقط بعضُ شعره لقوة التّفكير، ثم لا ألبث بعد ذلك أن أملأ سطورَ أوراقي ورأسُ القلم لم يقف، وتتولد خواطرُ من خواطر، وفِكَرٌ من فِكَر، أنتقل بها إلى خاطرات أخرى في موضوع آخر، ويعود ما ليس بديهيًا كالبديهي [ولك أن تقول: بَدَهِيّ].

وما الذّهن إلاّ كحدِّ الشَّفرة لا يقطع ما تريد حتى تَبْرُدَه فإذا بَرَدْتَه بالمِبْرَد سابقك في القطع، تضعه لتقطع به على جانب الشّيء فإذا به في آخره قد بلغ إلى حيث تريد، أو جاوز ما تريد، أو كالمرآة إذا لم تك مجلوَّة ولا مصقولة، فإذا صُقِلتْ أظهرتْ كل ما يقابلها في صورته التي هو عليها.

وكذلك الذّهن يحتاج إلى أن يُحَدَّ ويُحْمَى ويُصقَل ويُجْلى، ويُجاشَ ويُراش، فإذا تمّ له ذلك واجتمعتْ قوى الإدراك كلّها لم يكد يزعج الخاطرَ شيءٌ، ولا كان لكلِّ شيء حولَ صاحبه أثرٌ في التّشويش عليه وقطع سلاسل فكره.

وترى من اجتمع له ذلك يفكر تفكيرًا منظم المقدمات صحيحَ النَّتائج وهو في وسط الضّوضاء، ولغط الأصوات والفوضى، هو بينهم كالغائب الحاضر، لا يضيره شيءٌ؛ لأنه قد عزل ذهنَه وذهب به إلى مكان آخر، إلى المكان والزّمان والمعنى الذي أوغل فيه بباله ورمى نحوه بِبَلبالِه، ولعلَّه لو نُودي من مكان قريب لم يسمع، أو مسَّ أحدٌ جسده لم يحسّ.

والذين يشكون من لغط مَن حولهم وأنه يفرّق ما يجمعه ذهنهم أولئك الذين لم يحسنوا تركيزَ عقولهم وجمعَ إدراكاتهم لصادق الأفكار، وعزلها عن قواطع الأغيار، فلا غروَ آنئذ أن لا تصفو مرآة الجنان، وأن يَضيق

القلم برواجب البنان، وأن يقول صاحبها لبنيه مِن بَعد: اسكتوا يا أولاد. أو يقول: ما هذا الحرّ ؟! أو يشتكي من الذّباب، وفتح الأبواب، وربَّما غضب على امرأته فطلقها طلاقًا مُبينًا.

وكان قد طلقها من قبل ذلك طلقتين، إحداهما وهو يكتب رسالة الماجستير، والأخرى وهو مشتغل بأطروحة الدكتوراه، وحينئذ أقبل أبو مُرَّة، منشدًا مَرّة بعد مَرّة، في صَرَّة ومِرَّة:

اليوم عندك دَلّها وحديثها　　وغدا لغيرك زندها والمِعصَمُ

المرأةُ .. بلا زوجٍ .. !!

المرأة إذا كانت مقترنة بزوجها، نحو: ﴿ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ﴾ و﴿ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ﴾ رُسِمت في المصحف بتاء مفتوحة، وتسمّى المجرورة أيضًا، فإذا كانت وحدها كتبت بالتّاء المقفلة (المربوطة).

وفي رسم المصحف معان معقولة تجعل المتدبر لا يمنع من القول بإعجاز القرآن في كتابته، فإنَّ ذلك - والله أعلم - ممّا يشملُه قولُه سبحانه: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧﴾ [القيامة]؛ إذْ كان من حفظه أن يكتب ويجمع على ما هو عليه.

ومن ذلك رسمُه وترتيبُ سوره، أمّا رسمُه فلاختلاف الرّسم في ألفاظ متماثلة فيه، أقرب ما يقال فيه: إنّه إلهامٌ وُفِّق إليه الكَتَبةُ من أصحاب النَّبيِّ ﷺ، على ما هو مسطور في اللّوح المحفوظ، والله فعّالٌ لما يريد، ولو كان ذلك مُرتجلاً عن غير علم أو توفيق لكان الاختلاف في المرسوم تفريقًا بين المؤتلفات بلا موجب، فلا ريب أنَّ في هذه الآية - أعني قول الله: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧﴾ - معجزة ظاهرةً، وآيةَ باهرة، وحجةَ

قاهرة، ولا جرم أن الذين في قلوبهم مرض من الذين قالوا بتحريف كتاب ربٍّ الأرباب لا يؤمنون بهذه المعاني، بل لا يؤمنون بالكتاب كلِّه، ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ [آل عمران: ١١٩].

وأمّا سُوَره: فكما قال ابن حزم - رحمه الله -: لو كان ترتيبُ سور القرآن عن اجتهاد من أصحاب النّبي ﷺ لكان ترتيبُه على أطول سورة إلى أقصر سورة، أو بأقصر سورة إلى أطول سورة، أو على ترتيب نزوله، ولكنه ليس كذلك، فسورة النساء أطول من سورة آل عمران، وقد جعلت بعدها، وسورة الرّعد، وإبراهيم، والحجر، سُور بين سور أطول منها، وكذلك سورة لقمان والسّجدة، ذلك بأن العقول لا تهتدي في ترتيب شيء أو صنعه إلاّ على مثال سابق؛ لأسباب تعقلها، ومعانٍ تَقْبلها.

أيُّها الواقِفُونَ .. !!

الذين يخشون أن يتركوا ذريَّة ضِعافًا يخافون عليهم، فيتركون لهم وَقفًا ينتفعون منه بعد موتهم ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وذلك من عملهم الذي لا ينقطع إذا ماتوا، ولكن يجب على الواقف أن يكون كلامه في وصيته في وقفه واضحًا لا تحتمل اللّفظة فيه إلاّ معنى واحدًا، فإن كانت اللّفظة تحتمل معنًى أو أكثر أوضح ذلك بقيود تبين المقصود، وتخرج ما يتوهم دخوله في معنى ذلك اللّفظ، وعليه أن يستعين بأهل الخبرة والرّأي.

ولو كان لي من الأمر شيءٌ لوضعتُ لجنة تُحال إليها كل وَصية لتحقق من دقة ألفاظها ومطابقتها للواقع، كيلا ينقلب ذلك الخير إلى شر مستطير بين أصحاب الوقف وذريتهم من بعدهم، وإنني أخشى على ذلك الواقف إن أهمل أو فرَّط أن يقع في وِزر أو نقصان أجر.

والواقع شاهدُ عدل على قضايا كثيرة فرّقت الرأي والقلوب والأنفس،

ويمكث فيها أصحابها يتنازعون أمرهم بينهم، وهم ذاهبون آيبون إلى مجالس القضاء، يخسرون من أنفسهم وأموالهم بدل أن ينتفعوا ممّا تركه لهم أبوهم.

ومن الصّور الشّائعة التي وقفتُ على الاختلاف فيها والصّراع المرير: أن ينصّ في الوصية على الأولاد وهو يريد الأبناء وحدهم، أو يقول: أبناء أولادي، وهو يريد أبناء أبنائي. أو أن يخصَّ الصّالحين منهم دون غيرهم، فيقع الخلاف الشديد بينهم في مَن هو الصّالح ومن هو الطالح، ولا أحد يرضى أن يوصف بالفساد، فصار هذا الوقف شُعلة نار تحرق العلاقات وتأكل الرّوابط، ومنهم من يتظاهر بالصّلاح ليحصل له ذلك العَرَضُ الأدنى، وكان يكفي الواقف أن يترك هذا الأمر ويوصي ورثته، بأن لا يختلفوا بعده، ويكونوا من الصَّالحين.

ومن الصّور: أن يكون له مِلْكٌ كبيرٌ فيه مَزارع وأبنية، فينصّ على المزارع، وفيها مساكن وأبنية، ولا يستثني شيئًا. فيختلف بعد ذلك الورثة ولو بعد جيلين أو ثلاثة أو أكثر، فيدّعي بعضهم دخول المساكِن، ويقول الآخرون: لا.

فتتوقف المصالح ويجد الشيطان مدخلاً واسعًا للتَّحريش بينهم، وإيقاع العداوة والبغضاء.

بشِّروا ولا تنفِّروا

أراد الخالق - سبحانه - لهذه الأمَّة الوَسَطِ اليُسر والتّخفيف إرادة كونٍ وقدرٍ وأمرٍ وتشريع، وجعل ديننا يُسرًا، وجعل مع العُسر كفلين من رحمته ويُسره.

فإذا كان ربُّنا أراد بنا اليُسر، وأنزل إلينا كتابًا يسَّره للذّكر، وبعث إلينا

رسولاً ميسّرًا، وأمَرنا بالتّيسير، ونهانا عن التّعسير، فما بال أقوام أنيط بهم تعليمُ أبنائنا وبناتنا صاروا نقمةً على العلم وطالبيه !!

هذا أستاذٌ لا يعرف إلاّ حَشو أذهان التّلاميذ بالقوّة والزّجر والتّأنيب، غافلاً عن التّرغيب في الطّلب، وتقريب الأمل، وتحبيب العلم إلى قلوبهم وتزيينه لهم، ويا ويل وسوادَ ليلِ مَن دخل الفصل بعده، يزعم أنّ هذا من الحَزم، وغرس المهابة، وإعزاز العلم.

وبلغني عن أستاذ - لا أدري من هو [ثمّ علمتُ من هو] - قال لتلميذه وهو يحاوره: اُخرج من قاعة الدّرس. فلمّا توجّه إلى الباب قال: ارجعْ إلى كرسيِّك الذي كنتَ عليه وأخرجْه معك حتى لا يذكّرني بك!

فخرج، ولا يُدرَى أيُّما خرج أوّلًا .. الطالبُ بكرسيِّه، أم الرّغبة في العلم من قَلْبه قَبْلَه.

وآخر من شكْله، يجمع إلى ضَعف حصيلته قلّةَ حيلته في تدريسه، وسوءَ تدبيره في أسر قلوبهم بحسن الشّرح ولَطيف العَرْض.

وثالثٌ آخر، يزيد على سابقيه بأسئلة تعجيز، ترى بها الطلاب حَيارَى ليعجبوا من قوة ذكائه، وبالغ فطنته.

ورابعٌ زاد على هؤلاء وأولئك بسوء الكيلِ وتخسير الميزان، فالأصل عنده أن لا ينجح أحدٌ، ولسان حاله يقول: كلُّكم راسبٌ، إلّا من أبَى.

وخامسٌ لا أقدر على تصوّرِ وجودِه، وهو الذي لو اقتدى به تلاميذه لصاروا من المفسدين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

تَحَاوُرُ قِطتَين !!

هتفت قطة على أختها، كانت الأولى في الصُّومال عند قبر أفراخ،

والأخرى في الحجاز عند قصر أفراح، قالت الأولى لأختها: كيف الحال يا أمَّ دِرْص[1]؟

قالت: نحن بخير - يا أم شِبرق[1] - وفي سَعة ودَعة، وجَفنة مُدَعْدَعَة، ولا شيءَ يكدِّر الخاطر إلاّ أنّ النّاس - هُنا - في هذه الأيام يُكثرون من ولائم الأعراس ويطرحون ما بقي منها، وهي كثير، وكثرتها تزرع في قلوبنا الحيرة، فلا ندري ماذا نختار، ونأكل حتى تمتد أضلاعنا، وأنا - بيني وبينك - لا أحبّ لحمَ الحاشي، ونحن - وهذا غير خاف عليك - قد تناقص عددنا.

قالت: كيف ذلك وأنتم ترتعون وتأكلون من ظهور الأنعام وبطونها؟!

قالت: نعم، ولكن لهؤلاء النّاس الذين يقال لهم: بنو آدم مراكبُ يقودونها، يسرع بها الطّائشون منهم، حصدونا بها حصداً، وسوّوا بنا الأرض، ومسحوا بنا البلاط، ونحن قد تفقّأنا شحماً واسترخت أجسادنا بعد أن كُنا نسابق الرِّيح خِفةً وإسراعًا.

قالت: ولماذا تمشون في الخط السّريع؟

قالت: ليس ذلك في الخطّ السّريع، بل في بُنيَّات الطّريق.

قالت: أوَ يُسرعون فيها؟

قالت: نعم، ونحن في كل يوم نودِّع عشرات منّا، وسمعنا أنّ لديهم نظامًا يُسمّى نظام ساهر، يرصد المخالفين لأنظمة السّير، فلم ننتفع منه بشيء؛ لأنهم يرقبونهم في كبار السِّكك، ويتركونهم في الأزقة، وقد كثر المفتون في هذه الأيام ولم نسمع بفتوى لها أثر في نقص هذه الظّاهرة ..

---

(١) كنية الهرّة.

وانقطع الاتّصال حينئذ للمرة الخامسة، وفي كل مرة تعتذر أمُّ دِرص بشبكة الاتصال، وأمّا أم شبرق فكان يغمَى عليها من شدّة الجوع والمسْغبة، فعرفت بعض ما قالته أمّ درص وذهلت عن بعض، وكيف لا يذهل من لحس الجوع كبدَه؟

ولم تلبث القطتان إلاّ يومًا أو بعضَ يوم حتّى ورد نبأ نعيهما في خبر عاجل، يعلن أنّ إحداهما توفيت شِبعًا وتخمة وبَشَمًا، والأخرى ماتت جُوعًا وطوىً ومخمصة .. ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

خارج التغطية !!

لي صاحبٌ رفيع الذّوق، جيّد التّصوّر .. وللذّوق والتّصوّر - في بعض الأحايين - اعتلالٌ ينحدر بهما حتى يكون خارج التّغطية، كالهاتف الجوّال الذي يسمعك صوت محدثك أصواتاً تشبه وقوعَ آنية الزّجاج على أرض صُلبة.

قال ذلك الصّاحب: ألّفتُ كتابًا جمعتُ فيه فصولاً وأبوابًا في هموم الأمّة.

قلتُ: فماذا أسميَته ؟

قال: أسميَته: نَفْثَة مَصْدُور.

ومعلوم أن المصدور هو مَن أصيب بمرض في صدره، والنفثة: التّفْلَةُ؛ وغالبًا ما يعبّر به الأدباء عن ما يُعْقِبه الحبّ من النُّحول وفساد الجوف، حتى يصاب العاشق بداء الصّدر، فينفث دمًا، ومن ذلك قول ابن دريد في مقصورته المشهورة :

لكنّها نَفثة مصدور إذا   جاش لُغامٌ من نواحيها غمَا

فصار اسم الكتاب (تَفْلة مصدور) ولم يكن - بلا شكّ - مصدورًا، ولا مكبودا (مَن أصابه داء الكبد)، ولا ممعودًا (من أصابه داء المعدة) ولكنه أمرٌ جرت عليه العادة في الدَّعاوى العريضة في حمل هُموم الأمّة، فلا الذّوق يناسب التَّفل في هذا الموضع، ولا الحالُ يساعد على صدق معناه.

وقد وجدتُ من يؤلِّف كتابًا من أجل عنوانٍ أعجبه، فيسبق العنوان الكتاب، فتراه يَنزع من هنا وهناك، وينقل من هذا وذاك، بما يتّفق له، فيجمعُ كتابًا هزيلاً، فلا يطابق الاسمُ المُسمّى، ويخرجُ لنا كتابًا مُصنَّفًا مشتملاً على تخاليطَ، مثله كمثل من يُسمّي ولده قبل ولادته باسم ذكر، فتحقق حين ولادته أنه خنثى مُشكِل.

هذا، ولم أزل بصاحبي حتى أثنيته عن عنوانه إلى عنوان آخر، واستأذنته في نشر ما كتبتُ، فتبسم ضاحكًا، وأشار برأسه، فأشكر له إنصافَه وأريَحيتَه !!

دعوةُ الصائم

تأتي آيات الصّيام (الرُّكن الرَّابع في الإسلام) قبل آيات الحجّ، وأمّا الصّلاة والزكاة فقد ورد ذكرهما مرّات، آخرها في آية البرّ، وقوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة] جاء في وسط آيات الصّيام، وليس فيها شيء من أحكام الصيام، بل هي في سؤال الله ودعائه، وللسّائل أن يسأل عن سرّ ورودها بين آيات الصِّيام ؟

وقد أجاب أهل العلم عن ذلك، فقالوا: لما كان للصّائم دعوة لا تردّ ، وردت آية الدّعاء والحثّ عليه وإجابته هنا إشارة إلى ذلك، وفيها حث

للصّائم أن يستجيب لهذا العرض المشتمل على ذلك الفضل العظيم.

وقد اختُلف في صحة الحديث الوارد في ذلك، وفي هذا ما يقويه، هذه لطيفة، ولطيفة أخرى تشير إلى محل الدعاء وإجابته، وهو عند إفطاره، لورود آية أحكام ليلة الصيام عَقيبه، ولا أجزم بذلك، وإنّما هو خاطرٌ تولّد ممّا سبق.

كما أنّ لأهل العلم ههنا سؤالًا، سألوه وأجابوا عنه، وهو: عامّة ما جاء في القرآن من السؤال أجيب عنه بـ ﴿قُلْ﴾ إلاّ في هذا الموضع، فقد ورد السّؤال عن الأهلة، وعن الشّهر الحرام، وعن الخمر، وعن الإنفاق، وعن اليتامى، وعن المحيض، وعن السّاعة (في سورة الأعراف)، وعن ﴿مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ [المائدة: ٤]، وعن الأنفال، وعن الرّوح، وعن ذي القرنين، وعن الجبال، قال سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] وهكذا سائر المواضع، فلأيّ معنى حذفت الواسطة ؟

فقال أهل العلم: النُكتة في ذلك: الإشارةُ إلى أنه لا واسطة بين العبد وربّه، وأنّه ليس بينه وبين أن يجيب مولاه دعاءه إلا أن يسأله؛ لأنّه سميعٌ قريبٌ، ولهذا نُهينا عن رفع الصّوت في الدّعاء؛ لأنّ رفع الصَّوت نداءٌ للبعيد، والمناجاة للقريب، والله قريب مجيب.

فليفطن إلى هذا الأئمة الذين يرفعون أصواتهم في دعاء القُنوت لعلَّهم يرشدون.

سَواءُ الصِّراط

اثنان يعسر على المُربي إصلاحهما، وهدايتهما إلى سواء الصّراط، أحدهما: رجلٌ نفسه مستعدة لاكتساب عيوب النّفس وسوء الطبع، ونشأ على ذلك نشأة غذّاها بلبان سلطان التّشاؤم، وضعف الإرادة، وبما أفسد

فطرته من أساطير العجائز التي لا حقيقة لها، ولا ثمرة لها إلاّ زَرع الجُبن والخوف، وتعلق النَّفس بالوَهم وإلغاء العقول.

فيكون من مجموع هذا شذوذٌ نفسي ذو عُقد، كلَّما حُلَّت عقدة منها حَلَّتْ مكانها عُقدة، وسوف تجهد نفسك في مثل هذا، وتظن أنّك وصلتَ إلى بعض ما تريد منه في إصلاحه، ويقوِّيه لك سكوته، أو تصديقه لك. وسترى غدًا (يوم السّبت) إن كنتَ معه اليوم (الجمعة): أنك كنتَ تضربُ في حديد باردٍ، وتنفخ في رماد.

وأمَّا الآخر: فرجلٌ في عقله عِوَج، وفي فكره انحرافٌ، وقد يكون له ذكاء خارقٌ لكنه يخرج به عن قوانين العقول، وموازين القسط، وما هو بمجنون فيرفع عنه قلم التّكليف، ويوضع في يديه حبال التّكتيف، ولا هو من ذوي العقول، فينصب له مقام التّشريف، ولكنّه يخفض إلى مَيدان مجانين العقلاء، وآفته فساد في التّصوّر بسبب حُجج وهمية تنقدح له، يعجب بها فكره، فيصدِّقها، ويحسبها حقيقة، ويعجب من إنكارك لها.

فإذا اجتمعت الآفتان، شذوذ النّفس وشذوذ الفكر؛ فلا أمل في إصلاحهما، وللثّاني من الأول نصيب.

شُرْبٌ وليس برَضاع !!

كانت فتوى رَضاعِ الكبير فريسة للنُّقاد، كلّ منهم أخذ منها بطرف، ومنهم من أخذها بسُخرية واستهزاء، وليس هذا مسلك العلماء مع مَن احتجَّ بالدليل ولو كان مخطئًا في استدلاله وفَهمه.

ثمّ إنّهم قوّلوا من أفتى بها - وهو الشيخ عبد المحسن العبيكان - ما لم يقله، فقد حصرها وقصرها على الحالة التي تشبه حال (سالم) في قصته المشهورة.

والإنكار عندي في هذه المسألة على أمر آخر لم يعرض له أحدٌ ممَّن كتب في هذا الموضوع فيما أعلم، وهو إهمال المعنى اللّغوي للرّضاع؛ إذ لا يُسمَّى في لغة العرب ولا في لغة الشّرع رَضاعًا إلاّ ما كان بالمفهوم المتبادر، وهو امتصاص الحليب بالتقام الثّدي، وأمَّا إدخاله في الجوف عن شرب من إناء، فهذا شرب وليس برَضاع، ولكن أكثر الذين قالوا بجواز رَضاع الكبير حين رأوا حُرمة التقامه لثدي امرأة أجنبية مستبشعًا لجأوا إلى هذه الحيلة، وأهملوا شطرًا من معنى الرّضاعة كما صنع العبيكان.

ودونكم هذه الأسئلة التي لا يقدر على الإجابة عنها مَن يجعل شُرب الحليب رَضاعًا إلاّ بتناقض:

لو بقي الحليب مدّةً ثم شربه الرّجل، أو الصّبي، هل يبقى أثره؟ وما الحكم لو خلط الحليب بالسُّكر أو العسل أو عصير الموز؟ فإن كان ذلك مؤثرًا، فما الحُكم إذا كان مثرودًا أو كان مخلوطًا بالخبز أو بالأرز فصار عَصيدة؟ وما الحكم إذا صار الحليبُ جُبْنًا؟ وما الحكم إذا خُلط حليبُ امرأتين أو ثلاث أو عشر في إناء واحد، أيصبحن كلهنّ أمهات من الرّضاعة؟ وما الحكم إذا أدخل في جوفه من غير فمه؟ وكيف تقدَّر خمسُ رضعات مشبعات في ذلك كلّه؟ وما العلّة في التّحريم في ذلك كلّه؟

فإذا كانت العلّة معلومة معقولة، وهي سَريان عناصر الغذاء الموجودة في جسد المرأة إلى الرَّاضع بواسطة استحالته إلى الدّم، فهل التَّبرع بالدَّم - وهو أنفع وأكبر أثرًا - يقوم مقام الحليب؟

ولا بدّ حينئذ من أن تضطرب الآراء وتختلج الأقوال، وهذا جزاء من خرج عن ظاهر كلام الله وكلام رسوله، وأفرغ الألفاظ من دلالاتها.

كيف يُصنَع الأعداءُ ؟!

يحتجُّ بعض الآباء والأزواج على أولادهم وأزواجهم بقوله سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن ١٤] إذا خالفوهم ولم يمتثلوا أمرهم، ولو كانت مخالفتهم لهم في شيء من عرض الدنيا، وربما نشأ من ذلك عِداء حقيقي يزرعه هذا المفهوم الذي يثبّت معناه الاستدلال بكلام الله، فينشأ ناشئ الفتيان على ما عوّده أبوه، من إسماعه كلَّ يوم هو وأمَّه ومَن معه من إخوته أنهم أعداء.

ومعنى الآية ليس على ما يظنون، بل المراد - كما قال أهل التفسير -: هي في الأزواج والأولاد الذين يفتنون المرء في دينه، ويحمله حبُّه لهم على موافقتهم ولو كان ذلك في خسران شيء من دينه.

وقد ورد في سبب نزولها أنّها نزلت في شأن أناس من أصحاب النّبيّ ﷺ أسلموا، فلما أرادوا أن يأتوا إلى رسول الله ﷺ ليتعلموا أمر دينهم تعلّق بهم أزواجهم وأولادهم .. فنزلت الآية، وكان لأولئك الأهلين صِلات ووَشائج بأقوامهم في مكة، وفيهم مشركون، والمشركون أعداء، والعدوّ لا يرحم، ومن وسائل مكرِه أن يَنفُذَ إلى عدوّه من خلال قريبه، فإذا تمّ له ذلك استطاع أن يقعد لخصمه في مرصد، فالقريب أعلم بالمضرّة وأكبر تأثيرًا.

وسواء كان قصد أولئك الأزواج والأولاد خيرًا أم كان شرًّا فالعبرة بما يؤول إليه تصرفهم، كما يفعل الإنسان مع نفسه حين يرميها في مهاوي الرّدى، فلا جرم حينئذ أنه قد ناصبها العِدا.

فمَن آثر العاجلة وترك الآخرة فهو مسيء إلى نفسه، وهو يعاملها معاملة الأعداء.

على هامش الحج

لقيت من العناء ما لقيت في إقناع صاحب لي، طالب علم، هجم على ذهنه رأيٌ فائل في مسألة كبرى من مسائل الحجّ، يقول فيه: مَن وَقف بعرفة ساعة من ليل أو نهار، فقد صحّ حجُّه، وإن لم يعمل شيئًا من أعمال الحجّ حتى لو لم يَطَّوَّف بالصّفا والمروة ولا بالبيت العتيق!

قلتُ: ما الدليل؟

قال: قوله ﷺ: «الحجّ عرفة». قلتُ: هذا واردٌ على سبب، وهو أنهم كانوا يقفون بالمزدلفة، فقيل لهم في ذلك، أي: ابتداءُ الحجّ من عرفة.

قال: العبرة بعموم الألفاظ.

قلت: لكن معرفة الأسباب طريق من طرق فَهم المراد ومعرفته.

قال: فماذا تقول في حديث عروة بن مُضرّس الذي رواه (مسلم)، وفيه: «مَن شهد صلاتنا هذه - أي صلاة الفجر بمزدلفة - وكان قد وقف بعرفة ساعةً من ليل أو نهار؛ فقد تمَّ حجُّه وقضى تفثَه»؟

قلتُ: الحديث لم يروه مسلمٌ في (صحيحه)، ويلزمك أن تقول في الوقوف بمزدلفة ما قلته في الوقوف بعرفة، فإنه قال: «من شهد صلاتنا هذه .. »، فلماذا أغفلتَ هذه، وقد بدأ بها ؟

فترك الجوابَ ورجع إلى ترديد: «الحجّ عرفة».

قلتُ: هذه كقولك: الرَّجلُ زيدٌ، وكتسمية الأفعال المشتملة على التّكبير والقراءة والرّكوع والقيام والسّجود ركعةً، وما الرَّكعة إلاّ بعض ذلك، فإنّ الكُلّ المشتمل على أبعاض قد يُسمّى بواحد من أبعاضه؛ لأنه أظهرها، أو أكبرها، أو أوّلها، أو لمعنى آخر يريده الواضع كالحثّ على الاعتناء به، وهذان النُّسكان وقتهما مضيَّق، فمَن فاته الوقوف بعرفة فقد

فاته الحجُّ بإجماع العلماء، وكذلك مزدلفة في قول طائفة منهم.

ثم قلتُ: المقصود بالحجّ هو هذا البيت العتيق، الـذي جعلـه الله قيامًـا للنّاس، ورفع إبراهيم قواعده، وأمر بأن يُؤذِّن في النّاس بالحجّ إليه، وقال الله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقـال: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، أفيعقل في عقـل عاقـل أن يفهـم بعد هذا أن يأتي حاجّ من أقصى الأرض فيقف بعرفة يـوم عرفـة، ويلـوي راجعًا إلى بلده بحجٍّ صحيح تامٍّ بلا مناسك ولا طواف ولا سَعي؟! يا لهـا من غَنيمة باردة!

وههنا ضحكتُ، وما ليَ لا أضحك ؟ وقد قال الشّافعي رحمه الله: «من استغضب فلم يغضب؛ فهـو حمـار»، وأنـا أقـول: مَـن استُضـحك فلـم يضحك؛ فهو هو (أعني أبا زياد، أو أبا صابر).

ومن تعريفات الإنسان لدى المنطقيين: الإنسان حيـوانٌ ضـاحكٌ. والله يقول: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢]، بضمّ التّاء وفتحها، كلّ ذلك صَحَّت به القراءة.

فقه الدَّرْوَشة !!

من فقه الدَّروشة: أن يُعرّض المرءُ نفسـه للإهانـة، حـتى تـذوق الـذُّلَّ والصَّغارَ، وتتعلمَ التّواضُعَ والصَّبرَ، وحتى تنكسـرَ سَـورَةُ الكِبْـرِ والزَّهْـوِ والعُجْب والغُرور، ولا تكمُل نفسه ؛ حتى يجد لذلك لذةً، وحلاوةً حين يدفع نفسه ليهينَه النّاسُ ويُذلّوه أمامَ الخَلق ؛ بالسَّبِّ والطّـرد، والإقصـاءِ المهين، ويقولَ لنفسه: ذوقي مرارةَ الإذلالِ بما كنتِ تكسبينه مـن تعـاظُمٍ وتطاولٍ؛ وسمعتُ شيخًا يقول لولدِه: اذهبْ يا ابن الكلب!! وتعال يا ابن الكلب!!

ولو سُئل عن ذلك لقال: أريد تربيته كما ربَّيتُ نفسي على الإخباتِ والتَّواضع .. واحتجّ بعضُهم بقول الشَّاطبيِّ المقرئ، في نظمه المشهور (حِرز الأماني ووجه التَّهاني):

وقد قيل: كُن كالكلبِ يُقصيه أهلُه وما يأتلي في نُصحِهم متبذِّلا

وقوله:

يعُدُّ جميعَ الناس مولًى لأنهم على ما قضاه الله يُجرون أفعُلاَ

والشَّاطبيُّ - رحمه الله - لم يُرد ذلك، وإنّما أراد حملَ قارئ القرآن على أن يَعْرِفَ قدرَ نفسِهِ، وأن يحاسبَها، وأن لا ينظر إلى النّاس بازدراء، فالمسلم لا يحقر أخاه المسلم، وأنه لو وَجد من النّاس جفوةً ودفعًا، فعليه أن يجعل ذلك في ذات الله، ولا يملَّ من نصحهم وإرشادهم، وأن يجعل النّاسَ كأنّهم أهلُه، وكلما جفوه وأقصوه عاد إليهم، ولم يقصِّر في نصحهم، كالكلب الذي يقصيه أهله، ولكنه لا يتجافى عنهم، ولا يتنصل عن حِراستهم، ودفع الشرّ عنهم.

والفرق بين هذا وذاك: أنّ الأوّل متسبّبٌ لما حصل له تسببًا مباشرًا، ونفسَه قصدَ بالأذى، والآخر لم يُرد ولم يفعلْ؛ فلما أُوذي صبر؛ كمن أصابته مصيبة، فصبر ورضيَ بقضاء الله وقدَره؛ وهذا محمودٌ في الشّرع، مُرَغَّبٌ فيه، والأول مذمومٌ في الشّرع، ولدى أهل الفضل والعلم والعقل.

فَمِي بشوق . . !!

هذه الجملة المشوقة ذات الأحرف السبعة رمز اصطلاحي قديم، يروى عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يرمز إلى أوائل الأحزاب المقسمة على سبعة أيام، فالفاء للفاتحة، والميم للمائدة، والياء ليونس، والباء لبني إسرائيل (الإسراء) والشّين للشعراء، والواو لسورة ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾، والقاف

لـ ﴿قٓ﴾ إلى آخر القرآن، وأردتُ أنا وصاحبي الشّيخ الأديب عائض القرني (انظر إلى صورته المشرقة عن يميني)[١]، أردنا نظم هذا التّقسيم، فقال في هذا المعنى بيتين، بحسن خاطر، وسرعة بديهة، على طريقة البديع اللّطيفة:

انحر لهم بقرًا في كل مائدة ... ليونسَ القلبَ من إسرائهم شُعرا
فالصافات على قلب المحبة من ... سبعِ ليالٍ ترى من حسنها القمرا

وأما أنا فنظمتُ ذلك في أربعة أبيات سواءٍ، وهي:

ابدأ بجمعتِك الغرَّاءِ بالبقرةْ ... وبالعقودِ نهارَ السبتِ أو سَحَرهْ
ويونسُ الأحدَ، الإثنين حزبُك من ... سبحانَ يبدأُ، يا من عُمْرَه عَمَرهْ
وبعدَه الشُّعرا يوم الثلاثِ. وَرِدْ ... بأربعاءِ بصافات مَع البررَةْ
واختم بقاف إلى الناس الخميسَ وعُدْ ... في يوم جمعتنا من سُورة البقرةْ

فجاء هذا التّقسيم تمامًا على الذي أحسن، ثلاث سور، فخمس، فسبع، فتسع، فإحدى عشرة، فثلاث عشرة، فسور المفصَّل.

والموضوع مبسوط في كتابي (تحزيب القرآن) الذي جمعتُ فيه أنواع التَّحزيب والختم.

لَطِيفة ..!!

قال ابن الصّلاح: قراءة القرآن كرامة أكرم الله بها بني آدم، والملائكة لم يُعطَوا هذه الفضيلة، وهم حريصون على استماعه من الإنس.

واعتُرض على ابن الصلاح بأنّ جبريل هو الذي نزل به على قلب النّبيّ ﷺ، ورُدَّ على الاعتراض بأنّ أمر جبريل غير خافٍ على مثل ابن الصّلاح

---

(١) المقالة نشرت في ملحق الرسالة بصحيفة المدينة، وكنا نكتب في قِطَع متجاورات.

وإنّما عنى غيره، وتكلّف آخرون فقالوا: لا يلزم من نزوله به بقاء حفظه له، وَرُدَّ بأنه كان يدارسه القرآن والمدارسة عن حفظ، فقال أولئك: لعلّه كان يلهمه إلهامًا عند الحاجة. ولنا أن نعترض على قول ابن الصّلاح بقول الله عزّ وجلّ: ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣﴾ [الصافات].

والاعتراض - ههنا - قوي الاحتمال ما لم يكن برهان يرجّح أنّ المراد بالتّاليات غير الملائكة، أو برهان يرجّح أن الذّكر في الآية غير القرآن، أو لا يدخل فيه القرآن. فقد أورد المفسرون ههنا أقوالاً ذكرتُها باختصار، في (وجه النّهار)، فإن قيل: الاعتراض بالملائكة اعتراضٌ بما لا يكشف القناع، ولا يقطع حبلَ النّزاع، أبدينا اعتراضًا آخر، وهو: الجنّ مكلفون مثل بني آدم، وقد استمع نفرٌ منهم إلى النّبيِّ ﷺ وفقهوا ما سمعوا، وتحدَّى الله به الجنَّ كما تحدى به الإنسَ، فقال: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾ [الإسراء]، وقالوا: ﴿يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠﴾ [الأحقاف].

والمقصود: أنّ القرآن شرفٌ وذكرٌ لبني آدم، من أمّة محمد ﷺ، فإن كانوا خصّوا به - كما قال ابن الصّلاح - فلا تلاح، والأمر أوضح من بَراحِ[1]، وإن كان يدخل معهم غيرهم من الجنّ والملائكة، فالمسألة غير شائكة؛ لأنهم هم المكرمون به أوّل مرَّة، ولا لوم على من قال ذلك ولا معرَّة.

قَطعُ الأعناق . . !!

الخطأ في كثير من الأحكام والرأي، الفهمُ السقيم، وآفة سقم الفهم:

---

(١) من أسماء الشمس.

الجهلُ، أو: العجلة، أو: سوء الظن.

والجهل لا آفة له إلا الجهل، وأمّا العجلة فآفتها ضعفُ الصبر عن طمع، أو عجب، أو ذهول، وسوء الظن يكون في الغالب عن حسد، أو قبول النفس لما ظنت به مصداقا لقول أبي الطّيب:

إذا ساءَ فعلُ المرء ساءتْ ظُنونُه وصدّق ما يعتادُه من توهّمِ

هذه توطئة بين يدي مسألة من المسائل، يخلط فيها فريقٌ من النّاس عن سوء فهم، لأسبابٍ مختلفة، وهي مسألة الثناء على المسلم حيًّا أو ميتًا، فترى كثيرًا منهم يسارعون في ذمّ المادح بإطلاق، وما لي من سبيل في هذا الحيز - نسأل الله أن يوسّع علينا وعليكم - إلاّ تلخيص جزئياتها في هذه السّطور:

المدحُ إن كان بحقٍّ فلا محظورَ فيه، إلاّ أن يُخافَ على الممدوح فتنةٌ أو عُجبٌ، فإن كان بحضرته فالخوفُ أشدّ، فإن كان شابًّا لم يعاص دواعي الغرور فهو أشدّ وأشدّ، والمادح إن كان صادقًا في نفسه وفي الواقع، واجتنب ما ذُكِر آنفًا فهو محمودٌ، ولا تثريبَ عليه ولا على الممدوح إذا رضي بالمدح أو سُرَّ به في نفسه، وقد مُدِح النّبيُّ ﷺ، ومُدِحَ آخرون بحضرته، وأثنى على أصحابه ثناءً عامًّا وثناءً خاصًّا، ورضَى الممدوح - ما لم يظهر عليه زَهوٌ - لا يُذمُّ في الشّرع ولا في الطّبع، وقد قيل:

يهوى الثناءَ مبرِّزٌ ومقصِّرٌ حبُّ الثناءِ غريزةُ الإنسانِ

وجرى العلماء في تراجمهم على الإطناب في الثناء بلا نكير، وفيها مبالغاتٌ مقبولة، باعثُها حسن الظّنّ، وإعجاب المادحِ بالممدوح، أو حبّه له، وفيهم مَن كان حيًّا حين التّرجمة، ولم يجعله العلماء من نوع المدح

المذموم الذي يصدق عليه قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وَيلك قطعتَ عنقَ أخيك»[1].

وأمّا (المدّاحُون)؛ فهم الذين اتّخذوا المِدحةَ حِرفةً يخلعونها على كلّ مَن كان لهم عنده عَرَضٌ ينالونه منه، ولو كان من الجاهلين.

هذه خلاصة ما تدل عليه النصوص والسيرةُ العملية للسلف الطيب، وما أفهمه من كلام أهل العلم، وههنا أيضًا فريقان، أحدهما: مَن يؤثر الذمّ على المدح، وهؤلاء عيّابون عيّارون، والآخر: من يرضى بكاذب المدح، أو صادق الذّمّ المهين بحضرة الغير، عن ضعف في العقل والهِمّة، ولم يزل الأحرار ينهون عن ذلك كلّه، وينأون عنه.

قُوَّةُ الذَّاتِ

تجد اثنين من الناس، أخوين أو غير أخوين، متقاربين في العمر والوزن والصّحة العامّة لأعضاء الجسد، ثم تجد بين ذينك الشّبيهين فارقًا كبيرًا في النّشاط والحركة وأثر الصّحة، فصاحب الفأل والنّفس المشرقة والهمَّة الواثبة نَشِطٌ، نفخت همتُه في رُوعه، كأنّما يسري في كلّ عروقه ماءُ الحياة من نوع آخر .. قلبٌ متجوهر، ونفس توّاقة، وروح خفّاقة، وعزم خلاّق، وتراه في فرحه، وحزنه، واستقباله البُشْرى، وتمثّله لحسن القول، وجيد الكلام، مختلفا جدًّا؛ لما ينخلع على استعداده من انفعالات تهزّه، وآثار تؤزّه.

وتجد الآخر خامل العزم، بليد المشاعر، ضعيف الإحساس، منطفئ التفاؤل، فيرتدّ ذلك على نفسه كسلاً، وعلى همته ضعفًا، وعلى جوارحه عجزًا.

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي بكرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ (٦١٦٢).

وبذلك أستدلّ على أنّ قوة المرء في جسده مستمدّة من قوة روحه، وضعفه من ضعفها .. وإنك لترى الشيخ اليفن[١] يكثر شكواه من ضعفه، ووهن عظمه، وقلّة حيلته، ويشهد لذلك أنينُه وطنينُه، وتصدّقه جوارحه، فما هو إلاّ أن يُحرِّكَ خاطره بما يفرحه، أو بما يغضبه، من الأقوال والأفعال والأحوال الظّاهرة والباطنة، فإذا بالشّيخ شابٌّ في صورة شيخ، قد نفض لحاف الكسل، وخلع ثوب الونى، وقام وقعد، ونطق حرصه وأمله، وربما غرّه الحال، وتذكّر ذات الخال، وكنى عنها بالغزال، ثم تكشف له حقيقة الضعف وتناديه من مكان قريب:

وهَتْ عزماتُك عند المشيبِ ... وما كان من حقّها أن تَهي

وأنكرْتَ نفسك لما كبرتَ ... فلا هي أنتَ ولا أنت هِي

قولُ المرأةِ: أحبُّكَ في الله !!

هذه أربع فوائد حول حديث السّبعة الذين يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلّا ظلّه:

الأولى: الإضافة في «ظلّه» إضافةُ مِلكٍ، أي: الظّلّ الذي هو له، فهو مالك الملك وله كلّ شيء، ومن أهل العلم من يقول: ظلّه هو سبحانه، ويجعل ذلك صفةً له على الوجه اللائق به، وأمّا لفظ: «تحت ظلّ عرشه» فلا يصحّ منه شيءٌ في حديث هؤلاء السَّبعة.

الثّانية: العدل، والنّشأة على الطّاعة، والتّعلق بالمسجد، والتّحابّ في الله، والعفّة، والبكاء في الخلوة خشية أو شوقًا، وصدقة السّرّ، أيسرها آخرها، وأشقّها أوّلها، ولا تكاد تجتمع في أحد، ولعلّ الكريمَ ابنَ الكريم ابنِ الكريم ابنِ الكريم = يُوسفَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ممّن جمع ذلك، فقد كان إمامًا

---

(١) الطاعن في السّن.

عادلاً، ناشئًا في طاعة الله، ودعته امرأةُ العزيز، وهي ذات منصب وجمال، فاستعصم وقال: معاذ الله، وكان هو وأخوه متحابّين، وتحصيل الثّلاث الباقيات غير عسير.

الثّالثة: النّساء يشملُهنّ ذلك الفضل فيما يناسبهنّ، ومن حمل معنى الإمامة على ما هو أوسع من الإمامة الكبرَى أدخلهنّ في ذلك، وتعلُّقُ المرأة بمسجد بيتها كتعلّق الرّجل بمسجد الجماعة، والتّحابُّ في الله بين امرأتين كالتّحاب بين الرّجلين ولا فرق، ولا يعجبني أن تقول المرأة للرّجل الأجنبيِّ عنها: إني أحبّك في الله!

الرّابعة: ورد في السُّنّة أصنافٌ آخرون يقيهم الله شرَّ ذلك اليوم، ويُظَلّون في ظلّه سبحانه، أوصلهم الحافظ ابن حجر إلى أربعة عشر، ونظمهم في أبيات، وصحّح أحاديث سبعة منهم، وضعّف حديث الباقين، ومما صُحّح حديث: «مَن أنظر معسرًا أظلّه الله في ظلّ عرشه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه»، وفيه التّصريح بظلّ العرش، وبه يستدلّ على قوّة الوجه الأوّل في معنى الإضافة في قوله: «في ظِلّه»، كما هو مذكور في محلّه.

لماذا نَفعلُ الخيرَ؟!

يرى جمهورُ الفلاسفة أن الفضائل تفعل لذاتها، وأن الرَّذائل تترك لذاتها، وتلك هي الغاية من الفعل والتّرك؛ لأنّ ذلك هو الخير الذي يحقّق السّلامة والعافية للمجتمع، واكتساب المعارف نوعٌ من الفضائل، فالعلم يطلب لذات العلم، والمعرفة تكتسب لذاتها، وصنائع المعروف تصنع لأنّها خير، والمتأخرون من الفلاسفة أكثرهم ينادي به، وسرَى هذا المعنى إلى من أُشْرِب شعرُه بالحكمة من الشّعراء، كالشّاعر أحمد شوقي، ومنه قوله:

اطلبوا العلم لذات العِلْـ ـم لا لشهادات وآرابٍ أخرْ

ولكن الإسلام ومقاصده فوق ذلك كلّه، وهو فعل كلّ شيء أو تركه ابتغاءَ مرضات الله، فكلّ مَن عمل عملاً خالصًا صوابًا فهو عمل خير، وهو مشاركٌ في نفع المجتمع وفلاحه، والله يقول: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

وأمّا قول الفلاسفة فلا يسلم باطنه من فواقِر: منها: ضياع أجر مَن فعل الخير، وهذا يقال لمن صدّق ظنَّهم من فلاسفة المسلمين.

ومنها: أن للنّفوس أهواءً مختلفةً في مقاصد الخير والفضيلة، فقد يرى بعضُ النّاس جوازَ سرقة بعض كتب العلم من حَوزة مَن لا ينتفع بها؛ لأنّ سارقها ينتفع بها أكثر من صاحبها الذي اتّخذها قُنية وجمعها هواية، وفي ذلك خيرٌ ومنفعةٌ لنفسه وللمجتمع في زعمه، وما من رذيلة إلاّ وفيها - إذا فعلت - مناطٌ يتعلّق به كلّ من أراد التّلبيس وإلباس الرّذيلة رداءَ الفضيلة.

ومنها: أن بواعث العمل والخير والإحسان تضعف لدى النّاس، فالعمل بلا أجر ليس كالعمل بأجر، وإنّما تساق الهمم بالبواعث، فمن علم أنّه بسلوكه في طريق يلتمس فيه علمًا هو في طريقه إلى الجنّة، وأنّه يستغفر له كلّ شيء، لا يستوي هو ومَن لم يعلم ذلك ولم يُرِدْه، ولهذا لا ينقطع الأوّل إن قلّ تحصيله وكانت ملكته ضعيفة في وسط الطريق إلاّ إذا ضعف ذلك الباعث الحثيث.

محبةُ الخُلَطاء .. !!

المحبة بين متكافئين في الدُّنيا تقترب من الصِّدق، ويقلُّ فيها التجافي؛ لسلامة النّيات من عَوارض الشُّكوك في صدقها، وسبب ذلك ضعف الطمع في المصالح التي يبنى عليها أكثر ألوان الصّداقة والمحبة، وإنّما يسرع الفساد إلى المحبة بين كثير من الخلطاء حين تتقاطع الإرادات على

المنافع وأكثر ما يكون حين لا تتساوى الرُّءوس، وقد أخبرنا بذلك عالم الغيب والشّهادة حين قال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [ص: ٢٤]، والكثير يقابله الأكثر، أو الكثير، أو القليل، ولمّا كان هو المراد بَيَّن ذلك بقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾. وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ١٥، الشورى: ٣٠] فإننا نرجو أن يكون المقابلُ هو القليلَ أيضًا.

وحين يكون الخُلطاء ليس بينهم تكافؤ، كالغنيّ والفقير، والسّيد والعبد، ويدَّعي أحدهما المحبة، كان الأصل في دعوى الأعلى الصِّدقَ، وفي الأدنى ضعفَ الصِّدق، غير أن المحبّاتِ من كلٍّ أحد لكلّ أحد، لها دلائل، تتخلل مسالكَ الأرواح، ولا تخفى على القلوب التي في الصُّدور، وكم يقع في هذا المقام من أيمان فاجرة، وعهود غادرة، برهانًا على صدق الوداد، وصاحبها في واد، والصّدق في واد.

وقد عرض ابن مسكويه للكلام عن أسباب المحبة وأجناسها في كتابه (الأخلاق) على نحو آخر.

مخُّ البعوض ..!!

تبصَّر في مصنفات المتقدمين من أهل القرون الأولى في عصر التّصنيف تجدْ عناوينَ كاشفة بألفاظ موجزة، لا تَكَلُّف فيها ولا غموض، لفظة أو لفظتان في الأعم الأغلب، ككتاب (الرّسالة، والأم، والموطأ، والحيوان، والأمثال، والعين، والاشتقاق، والجمهرة، والمحلّى)، ثم احلولَى للمستأخرين أن يسجعوا في أسماء تواليفهم، كيف لا؟ وقد طال زخرف البلاغة واتّسع ثوب البديع، فحكمت السّلائق بقبول ما سهل منها واقترب من الطّبع، ولم يَطُل، ككتاب (سبل السّلام على بلوغ المرام، وفتح الباري شرح صحيح البخاري).

وأمّا ما عسر منها وطال ففي طي النّسيان، وصدف النّاسُ عن ذِكره إلى ما هو أيسر، ككثير من الشّروح، اكتُفِي فيها بإسناد الشّرح إلى مؤلفيها، كـ (شرح الأشموني، وحاشية الصبّان)، أو اكتُفِي بجزء من الاسم، ككتاب (القاموس المحيط والقابوس الوسيط فيما ذهب من لغة العرب شماطيط).

فإن كان صاحب القاموس يُعذَرُ في هذا فمن عذيري من ابن خلدون - وهو النقّاد الجهبذ - الذي سَمّى كتابه (العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر)، وكان يكفيه الجزء الأول من الاسم، وقد نُسِي الاسم، وقال الناس: تاريخ ابن خلدون.

وانظر الفرق بين هذا وبين تسمية ابن كثير لتاريخه (البداية والنهاية)، وثَمَّ كتابٌ سمّاه مؤلفه (قُرّة عين الشُّهود ومرآة عرائس معاني الغيب والوجود .. إلخ).

وإنّي ليَحْزُنني عنوان كتاب اسمه (مُخّ البعوض في علم العَروض) لم يجد فاصلة مناسبة للعروض إلاّ هذه.

وكان لبعض أصحابنا صاحبٌ، له صاحبٌ اسمه (منَّاع) أقسم ليُصنِّفنّ في الرّدّ عليه كتابًا، عنوانه (البحر المضارع في الرّدّ على منّاع) يظنّ أنه يكفي موافقة السّجع بالعين كيفما اتّفق .. وما كان أحرى بهذا العنوان الفارغ، أن يقذف في البحر المضارع، (ولا تحسبوا أني أردتُ السّجع بين الغين والعين).

مراتبُ الحفظِ

النّاس في الحفظ والنّسيان على مراتب أربع:

الأولى: سريعو الحفظ، بطيئو النّسيان.

الثانية: بطيئو الحفظ، سريعو النّسيان.

الثالثة: سريعو الحفظ والنّسيان.

الرابعة: بطيئو الحفظ والنّسيان.

وبين ذلك مراتب نسبيَّة، فقد يكون مَن هو متوسط الحفظ، أو متوسط النّسيان، أو دون ذلك، أو فوقه، ولا يقال عنه: بطيءٌ، أو سريعٌ، إلاّ بمقارنته بغيره. وقد يكون صاحب المرتبة الأولى في عصرنا لا يكاد يصل إلى مرتبة أعلام الحفاظ الذين كانوا من آيات الله في قوّة الحفظ والتّذكر وسرعة الاستحضار، كقتادة، والأصمعيّ، والشّافعيّ، والبخاريّ.

هذا إذا كانت الموازنة بين أشخاص مختلفين في الحفظ والذّكر، فإن كانت الموازنة بين حفظ الإنسان نفسه وبين نسيانه، فبطء النّسيان مع بطء الحفظ، أولى من السّرعة فيهما، وإنّما مثل البطيء فيهما كمَن جمع ماله في تؤدة واطمئنان، وهو يحافظ عليه وينفق بقدر، والآخر كمن يكسب مالاً كثيرًا كلّ حين ثم يبدّده كلّ حين، وربما تكاثر النّسيان، فكان كالقربة المخروقة التي يتسع خرقُها حتى يصير خرقُها أوسع من فمها، فهذا كمن بلغ معنى قوله سبحانه: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٥]، وإن شئتَ فاضرب لهم مثلاً أصحاب شركات الأسهم؛ إذ ما كان منها بطيء الرّبح فهو قليل الخسارة.

ثمّ إنك إذا أدخلت الفهم معهما آلت إلى ثماني مراتب، أردؤها بطيء الحفظ والفهم مع كثرة النّسيان، وأشرفها بطيء النّسيان مع قوّة الحفظ والفهم. وكلّ المراتب موجودة في الخلائق، وأقلّها من كان بطيء الحفظ سريع الفهم سريع النّسيان؛ إذ نسيان المفهوم قليل.

ملتقى العلم والفكر

قبل عشر ليال خلت جمعتنا جوانح المدينة النبويَّة المنوّرة ضيوفًا أعـزّة

في ظلال (المؤتمر الثّالث للأوقاف) المنعقد بالجامعة الإسلامية، ولقد أعلن مَن حضره شهادة حقّ أنّه كان سابقًا باسقًا رائقًا فائقًا في ذاته وموضوعه، وبحوثه وتنظيمه، وزمانه ومكانه. وممّا زاده روعة وجمالاً ما لقيه المؤتمرون ومَن كان بالحضرة من كرم أخلاق ونبل خلاق من معالي مدير الجامعة، حتى قال بعضهم - ورفع يديه إلى المولى -: اللّهم اجعل بيننا أكثر من (عقلا).

وبحضوري ذلك ذكرتُ - والذّكرى مؤرقةٌ - أيامًا مضين من الصّبا عشتُها بين تلك المرابع والمعاهد، ورفلتُ فيها بين تلك الموارد والمشاهد، قبل ربع قرن من الزّمان، كان لي فيها رفاق وأصحاب، وشيوخ وطلاب، يومها لم أكن إلاّ خدينَ الأقلام والأحبار، والعلماءِ الأحبار، طَلاَّبَ علم، وحَفَّاظ متون، طَلاَّع منابر، ومسطِّر أشعار.

نعم حضرتُ ذلك المؤتمر العالمي، ولكنَّ طائفةً من الرّوح كانت تغدو وتروح، إلى حيث كان مآبي، ودرسي وكتابي .. دخلت مسجد الجامعة - وكنتُ يوم ذاك إمامَه - ومشيتُ من ورائه وأمامَه، ونظرتُ إلى محرابه، وشُرَفه وأبوابه، وسيَّرتُ طرفي بين تلك المعالم، ووقفتُ أمام الكُلّيات الخمس أُصيلاَلَا أسائلها، واحدة واحدة، فلم تجبني حِوارًا، وإن أجابتني اعتبارًا، ورجَّعت بصوتٍ صدَّاح ما قلتُه فيها عنها أيامئذ:

والكلِّيات خَمسٌ الشريعةُ	ذِكرٌ وهديٌ دعوةٌ ولغةُ
أفضلها كُلّيةُ القرآنِ	ثم الحديث في المقام الثّاني
ثمّ الشّريعة وقوم رجّحوا	لأنها للأوْليْين تشرحُ
وقال قوم: دعوةٌ، ذا حسنُ	لقوله في فصِّلتْ: مَن أحسنُ
وبعدها اللّغةُ باتّفاقِ	وهْيَ الأخيرةُ على الإطلاقِ

وقد تركتُ منها ثلاثة أبيات لأنّها كانت دُعابة طارحتُ بها واحدًا من الرِّفاق، ونظرتُ والنّاس يصدرون أشتاتًا من تركته هناك، فإذا مَن يعرفني أكثر ممّن أعرفه، وإذا بالغلام قد صار رجلاً، والشّادخ كهلاً، والكهل شيخًا كبيرًا، والشّيخ نهشلاً، وقلتُ لصاحِبيَّ: قفا نبك من ذِكرَى (حبيب) ابن أوس؛ إذ يقول:

ثم انقضَت تلك السّنون وأهلُها   وكأننا وكأنهم أحلامُ

من لَطيفِ الحِكْمة

قد يكون من حكمة العليم الخبير أن يُلهم أهلَ العلم أو بعضهم في الأزمان المتأخرة ألوانًا من التّيسير، ورفع المشقة والحرج، يفهمونها من نصوص الكتاب والسُّنة، فُهِمَت من قبل ولم يعمل بها لعدم الحاجة إليها، أو لم يحفظها التّاريخ في كتب التّدوين، أو ادَّخر المولى سبحانه فهمَها لمن يحتاجها من الخلق بحسب ما يرد عليهم من نوازل أو أسباب تحتاج إلى حكم يناسب مَن نزلت به.

وكم من مسألة كان العمل فيها جاريًا على فَهم تدل عليه النّصوص دلالة عامّة، أو فُهم منه دلالة خاصّة على ذلك المعنى الذي يعمل به، فلما ضاق الأمر وصاحَبَهُ الحرج والمشقة اتّسع النّطاق، وانداحت الدّائرة، وشهد على ذلك شاهدٌ أو أكثر، من أثر منقول ورأي معقول، كما في بعض المسائل المتعلقة بالحجّ، ونحو ذلك من مسائل العبادات والمعاملات والأنكحة والجنايات. نظر أهل العلم فيها وفي نصوص الشّريعة ومقاصدها وما يريده الله من يُسر وتخفيف ورفق بأمّة محمد ﷺ، فوجدوا لَهُم من أمرهم يسرًا، ومخرجًا لا يرهقهم عُسْرًا.

ولستُ أريد بهذا المسائل التي ورد التّيسير فيها بعينها، بل عنيتُ

المسائل العامّة، وفي الأحكام ما لا يكشف أدلتـها المستنبطة إلاّ تعاقب العصور، كما أنّ في القرآن ما لا يفسره تفسيرًا واضحًا إلاّ تجدد الأزمان، كقولـه سبحانه: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]، وقولـه: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرّحمن]، أي: من الملح والعذب، وقال سبحانه: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل: ٩٣].

وأمّا قواطع الأدلةِ في الشّريعة في حكم من الأحكام التكليفية؛ فلييأس المبطلون أن تُجمع أمّة محمّد ﷺ على أن تتواطأ على إباحة محرم بدعوى التّيسير، أو منع واجب بدعوى دفع التّعسير إلى أن تقوم السّاعة، فالحقّ باقٍ إلى يوم القيامة، والقائمون عليه ظاهرون إلى يوم القيامة.

منطقُ الطَّير ..!!

ليس من البلاغة في شيء أن يعمَدَ المتكلمُ أو الكاتبُ إلى وحشيِّ العربية وحُوشيّها فيخاطِب به النّاس، فيكون كمَن يتكلّم العربية لدى من لا يفهمها، ويكون المتلقّي كمن يسمع أصواتًا لا يفهم منها إلاّ ما يفهمه من منطق الطّير.

فالإغراب الشّديدُ منافرٌ للفصاحة قبل أن يكون منافرًا للبلاغة، غير أنّ البلاغة نفسها تسوّغ للمتكلِّم أن يخالف إلى ما ينهَى عنه البلغاءُ في مقام دون مقام، كأن يكون قصدُ المتكلم تحريكَ همّة المخاطب، أو تجهيلَه، أو تنبيهَه إلى حال المتكلم ومنزلته، أو يكون قصده التَّظَرفَ ومفاكهةَ المخاطب.

ومن ذلك كلام كتبته قبل بضعة عشر عامًا رغب إليَّ واحدٌ من رفاقي أن أكتبه له ليرسله إلى عزيز يستعجبُهُ، فكتبتُ له: «إلى جَمِّ المناقب،

الخضَمّ، المِدْرَه، السُّرسُور، الغِطريف، المنجذ، أمتعه الواهب برخاخ فَلْقَم، وعزٍّ كَيْخَم .. أخذتُ المِزبرَ بشناتري ليرفَضّ ما بحُماطةِ الجُلجُلان، زَبْرًا من ذُبابةِ عليّ - وفاءً - واصبةٍ إلى الأبجْ، لِرابَّةٍ لا يوفّيها شكر مَنْمول، ولا تَذكارُ خِزَان، كيفَ وقد بلَغتْ القَمَحْدُوَة من ختام، والتَّرقوة من أمام ؟ لم يذهَل الخاطر عن ذلك، وإن كان زمنه هذا في دَدٍ وسَعة، ورفَاغيَةٍ ودعَة، وجفنة مُدَعدَعة، وبُلهْنية مُكَثَّعَة، وسَوقَعَةٍ مشعْشعَة، بمكانٍ مُبلندحٍ وأياةٍ رائعةٍ في عَريضِ العَروض .. لقد ذكرتكم فشكرتكم، شأن كلّ حِلّسم مُكافي، وجمإ مُوافي، وخرْقٍ مصافٍ، وما كان لي إليكم من سلطان، وأنتم في ذلك البُطنان، إلا خطرات البراعة، في هذه السّاعة، وإن خير ما أزبره عن نعتكم في القِرطاص، ما قاله ابن القناص:

أجشُّ مغْلنطِقٌ مغدَودِق غَدِقٌ مُهْرورقٌ ودِقٌ مُسْحَنْفِرٌ دَانِ

والسُّرسُور كما في (القاموس): الفطن، العالم الدّخّال في الأمور، والحبيب، والخاصّة من الأصحاب، وهي من أشرف الألفاظ التي يختلج ظاهرها بباطنها. والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته وعفوه ورضوانه .. إنّه من فلانٍ، وإنه بشَوق إلى لقاءَةٍ، ولو عند تلكم الآءَةِ (التوقيع)».

هذه لوحة تظهر جانبًا من جوانب العربيّة أردتُ إظهارَه وحسْب.

نَقضُ العَزائم . . !!

الوارداتُ كالخاطر الذي يومضُ في القلب، وهي أقوى - في ظَني من خَواطِره - فإذا انتهى الوارد إلى إرادةٍ صار بها أقوى، حتى تكون عَزيمةً.

والبرهان على ضعف البشر، وقلّة حيلتهم، وتقلّب قلوبهم ما يحصل

لهم من نقض العَزائم، ولمّا كانت العزائم لا تكفي وحدها قال الله لنبيّه: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

والحقائق هي التي تكشف صدق العزائم، فقد تكون مجرَّد دعوَى، أو يكون صاحبها صادقًا غداة صدورها من نفسه، ويصدِّق ظنّه فيها، فإذا جدّ الجدّ وعزم الأمر تبيّن لنفسه غير ما كان يظنّ.

ولمثل هذا أسوقُ خبرًا حاصله أنّ واحدًا من طلبة العلم أحبّ بعض شيوخه حبًّا حمله على أن يقول: أتمنى أن يأخذ الله من عمري ليمدَّ في أجل الشيخ، فأراد أحد الظرفاء أن يتثبَّت من صدق دعواه، فجاءه في هَدْأة الليل، فلم يوقظه إلاّ اهتزاز السرير، وسماع صوت أصحل، يقول: قَبِلنا هبتك ما بقي من عمرك لشيخك، والسَّاعةَ أجلك، فأخذ يجأر ويتوسل، في استرجاع هبته، ولم يتركه صاحبه حتى بلغ منه الجَهْد، ثم تبيَّن له أنّه مَقْلبٌ، وأن الهاتف لم يكن ملكَ الموتِ.

ويشبه هذا قول من قال: لو أدخلتني النار لكنتُ راضيا، قال ابن تيمية: هو عزم منه على الرِّضا، والعزائم قد تنفسخ عند الحقائق.

ونحوه قول بعضهم (وهو سمْنون العابد):

وليس لي في سواكَ حظٌّ فكيف ما شئتَ فامتحنّي

فابتلي بعُسر البول، وجعل يطوفُ على صبيان المكاتب، يقول: ادعوا لعمكم الكذّاب.

هذا البَلَد ..!

هل في القرآن سورة باسم من أسماء مكة؟

نعم، (سورة البلد) وكلُّ ألفاظ (البلد) المقيّد بالأمن أو المطلق منها،

و(البلدة) بالألف واللام، المراد بها مكة، والقول بأنّ المراد بقوله سبحانه: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾ المدينة النَّبوية، قولٌ ضعيف، يذكر لينكر؛ لأنّ السورة مكيّة، باتّفاق أهل العلم، ومن شَواهد بطلانه السّياق، وكذلك لفظ (البلد)، قال سبحانه: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا﴾ [البقرة: ١٢٦]، وفي (سورة إبراهيم): ﴿هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾ [٣٥]، وفي (سورة النّمل): ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ [٩١]، وفي (سورة التين): ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾.

وللقارئ أن يسأل عن النكتة التي يفهمها من يتأمّل في أساليب القرآن في ملازمة اسم الإشارة في الآيات الخمس السّابقة، وفي قوله سبحانه أيضًا: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣﴾ [قريش].

والجواب البديهي (ويجوز أن تقول: البدَهي) أن المخاطب بتلك الآيات كان بمكة أو حولها، ولفظ «هذا، وهذه» للإشارة للقريب، فأشير إلى القريب بما يدلّ عليه، وهكذا ما جاء في دعاء إبراهيم، يشير به إلى مكان قريب.

ولكن هذا الجواب لا يشفي من يتلمّس المعاني المستنبطة في أساليب القرآن المعجز بلفظه ومعناه، وهو أيضًا جواب نحويّ، لا بلاغيّ، والبلاغة ترقّق القلوب وتدنيها، والنّحو يُقَسّي القلوب ويقصيها، لاسيما إذا كان يدرَّس بطريقة الحَشو والإرهاب، لا بطريقة التّيسير وإمتاع الألباب.

والقصد أن البلاغة تقول: الإشارة بـ «هذا» لتمييز المشار إليه أكمل تمييز، وقد تكون لتعظيمه.

وعندي جواب لا أجزم بصوابه، وهو أن هذا البلد لما كان قيامًا للنّاس، ومهوى الأفئدة، ومطلب الوافدين إليه، صار قريبًا منهم

ولو رحَلوا، ومحطّ آمالهم وإن بَعُدوا؛ إذ هو في أذهانهم وقلوبهم، فلا غرابة حينئذ أن يشار إليه إشارة القريب الحاضر في كلّ زمان ومكان.

ومن اللّطائف: أنّ المواضع كلّها وصف فيها البلد بالآمِن أو بمعناه إلّا موضع (سورة البلد)؛ لأنّ ما بعده وهو: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢﴾ لا يناسبه كما لا يناسبه أيضًا معنى الكَبَد المذكور بعد ذلك.

هيئةٌ .. بلا ضبط !!

صلّيتُ قبلَ أيامٍ صلاة الفجر في مسجدٍ بمكة، فصلّى بنا رجلٌ لم يقرأ آيةً من (سورة الفاتحة)، ولا آيةً من (سورة النبأ) - التي قرأ بها - إلاّ وأخطأ فيها .. ولم أتبيّن أنّه قرأ (سورة النَبَأ) إلاّ بعد آياتٍ من أوّلها؛ لأنه أكلَ الحروف أكلاً .. وذهبَ بفصاحة القرآن أصلاً، وكأننا في تَنُوفَةٍ نائية ليس فيها مَن يعرفُ القراءة ويُحسن التّلاوة، ونحن في منزل الوحي .. ولم يُقدِّمْه النّاس إلاّ لِما رأوه في هيئته؛ من كمال الاقتداء بالهَدْي النّبوي؛ له لحيةٌ طويلةٌ، وثوبٌ غيرُ طويل .. وصدّقوا ظنَّهم فاتبعوه، وصدّق هو ظنَّه فرأى أنّه أقرأُ القومِ .. والنّاسُ معذورون فيمَن ظهر لهم في صورة مَن له أهلية للإمامة، وهو جاهلٌ بسيطٌ يُدرك أنّه جاهل؛ ولكنه تهاون في أمر الأهلية أو هو جاهل مُركَّبٌ لا يدري أنّه جاهل، وهو غير معذور في الحالين .. ألم يعلم بأنّ المتشبِّع بما لم يُعطَ كلابس ثوبي زور ؟!! ولقد كان يَحقُّ لِمَنْ خلفه أن يجرَّه من ثيابه؛ ليصلي مكانه.

إنّنا كنّا في زمن غير بعيد نبحث عن القارئ الحافظ فلا نجده إلاّ بعد لأْيٍ، وكان الحافظون يُعَدُّون على الأصابع، فصِرنا في زمنٍ يزْخَرُ بالحُفّاظ والقُرّاء؛ بل يزخرُ بحُفَّاظ القراءات، وكثير منهم من صغار الصّبيان الذين لم يبلغوا الحُلم، وصار في المجتمع حوافظ من النّساء، منهن مَن تجمعُ القرآن بقراءاته العشر .. وكانت المصاحف قليلة، فصارت

كثيرة ؛ على أحسن الطّبعات، وبأجود الورق، وأصبحت وسائل التّسجيل المسموعة والمرئية كثيرة، وسُجِّلت مئات المصاحف للقُرّاء .. فهل يقدر أحدٌ أن يوجد لمثل صاحبنا عُذرًا في أن يكون بهذا القدر؟ أو يرضى لنفسه أن يتقدّم على أناس يظنهم دونه في الحفظ والتّلاوة.

وأمّا الصّوت، فسبحان مَن يزيد في الحلق ما يشاء وينقص!

صدق الخبر

ع

الإنسان في عقوده الأولى من عمره لا يتجاوز الحقيقة في الإنباء عن عمره، لا يزيد في ذلك ولا ينقص، فإذا كان في منتصف العمر نقص من سني عمره بمقدار ما يصدَّق به، لا سيَّما إذا كان في حالتين:

إحداهما: حال إقباله على زواج، وربّما شكّك في صدق التَّاريخ المدوّن في بطاقته بأنه زيد لسبب ما.

والثّانية: إذا كان في مقام الثّناء على إنجاز علميّ أو عمليّ؛ لأنه يلذّ له أن يقال: سبحان الله! كيف اتّفق له ذلك في هذه المُدّة اليسيرة وهو لم يبلغ كذا وكذا من العمر. فإذا قارب الثّمانين أو جاوزها يُسألُ عن عمره فيزيد بضع سنين. يعجبه أن يقال: ما شاء الله عليك! زادك الله ومَدّ في أجلك، ولأنّه لا أمل في إخفاء ما الله مبديه من شَعَر شاب، وعظم وَهَن، وجلد يبس .. ويسُرّه أن يقال: لقد فسح لك في الأجل وطال عمرك، وحنكتك التّجارب والأمور، وتوالت عليك الدّهور، وإذا نوقش في تاريخ مولده المكتوب، قال: لم تكن الكتابة دقيقة حينها لسببٍ ما.

ولعله صادقٌ عند نفسه في الأولى وفي الثّانية؛ لأنه نسي ما كان يدَّعيه من قبل، أو أقنع نفسه في الأولى، ثم أقنعها في الثّانية، والمخبر إذا أخبر عن نفسه بما هو صادق به عند نفسه فهو صادق، وإن خالف خبره الواقع.

فهناك فرق بين صدق الخبر وصدق المخبِر به. وعندي: أن صدق الخبر: مطابقته للواقع، وصدق المخبر: مطابقة ما قال لما في نفسه يقينًا أو ظنًا.

سُلَّم الوصول

ثلاثة أشياء تُذهِب السّخائم وتنيل المطلوب، وتدفع الأذى، وتقرِّب النُّفوس، إحداها: الهديّة، فإنّ لها موضعًا في القلب، وأثرًا في النفس، وروي عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «تهادوا تحابوا»[1].

ومن الشّعر:

تَهادِي الناس بعضِهم لبعضٍ ... يُولِّدُ في قلوبهم الوصالا

وقال آخر:

إنَّ الهدية حلوة ... كالسحر تختلب القلوبا

والثاني: المال والعطيّة، فكم أنطق المال من أفواه صامتة، وكم أسكت من ألسن ناطقة، وكم قلّب من موازين وغيّر من قوانين، وجعل من البغيض حبيبًا، ومن البعيد قريبًا، ومن الكاشح[2] صاحبًا، ومن الحاسد راضيًا، وكم صيّر الشّامت إلى حادب، والقادح إلى مادح.

وذكر المزيّ في (تهذيب الكمال) أنه لما قَعَدَ أبو حنيفة للفُتيا قال للنّاس مساور الورّاق[3]:

---

(١) أخرجه البخاري في (الأدب المفرد: ٥٩٤)، وأبو يعلى (٦١٤٨)، والبيهقي (٦/١٦٩)، وفي إسناده: ضمام بن إسماعيل، وموسى بن وردان، وكلاهما قيل فيه: صدوقٌ، ربّما أخطأ.

(٢) مضمر العداوة.

(٣) أحد شعراء الكوفة، أخرج له مسلمٌ والأربعة، توفي بعد المئة الأولى.

كنّا من الدّين قبل اليوم في سعة ... حتى بلينا بأصحاب المقاييس
قوم إذا اجتمعوا صاحوا كأنهم ... ثعالبٌ ضَبَحت[١] بين النَّواويسِ

فلما بلغ ذلك أبا حنيفة بعث إليه بمال، فقال مساور حين قبض المال:

إذا ما النّاس يومًا قايسونا ... بآبدةٍ من الفتيا طريفة
أتيناهم بمقياس صحيح ... مصيب من طراز أبي حنيفة
إذا سمع الفقيه بها وعاها ... وأثبتها بحبر في صحيفة

ومن أمثال العامّة: (ضع ريالاً في مؤخّرة الذّئب، يرعَ لك الغنم)، وقلتُ في هذا المعنى:

فضع درهما في فتحةِ الذّئبِ يستقمْ ... ويرعى بإخلاصٍ و جدٍّ لك الغَنَمْ

والثّالث: المدح والثّناء، فقد جُبلت النّفوس على محبة الثّناء، ولا يكرهه عن طبع إلاّ خاملٌ بليد، أو عاقل أدرك أنّ المادح يمدحه نفاقًا، أو مدحه بما ليس فيه.

ولا يبلغ هذه المرتبة إلاّ أحد رجلين؛ رجل شبع من الثّناء ومن كثرته، ولم يعد الثّناء يحرّك فيه ساكنًا، ولا يجلب منفعةً ولا شُهرة، والنّفس إذا شبِعَت من المدح استوى لديها المدح وعدمه. أو رجلٌ يُربِّي نفسه على أن لا يكون للمدح أثرٌ في نفسه، ويكره كثرة المدح ولو بالحقّ كراهةَ شرعية.

وفي جميع ذلك لا بدّ أن يكون للمادح في نفسِ الممدوح مكان وميزة، وأقلّ أحوال التّأثر أن يكفّ عنه الأذى أو يخفّف عنه إن كان الممدوح ممّن يخاف منه المادح أو يرجوه .. وكان بعضنا في مراحل

---

(١) صاحت.

الدّراسة الأولى يعمد إلى الثّناء على المدرّسين حتى نحصل على زيادة في الدّرجة ونجد أثرَ ذلك واضحًا.

أسلوب الحكمة

علّمنا الشَّرع أن يكون قصدنا من جواب السَّائل نفعَه وإرشادَه، فإذا سأل عمّا لا ينفع، صرفناه إلى ما ينفعه على سبيل الأسلوب الحكيم، ففي الجواب ما ينفعه وزيادة، ومنه في القرآن: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، فإنّهم لمّا سألوه عن الهلال: ما باله يكون صغيراً ثم يكبر؟ وليس في ذلك كبيرُ فائدة أجابهم الحقُّ بما هو أنفع، وأخبر أنّها مواقيت للنّاس.

وفي هذه الآية دليلٌ على أن تتبّع الدّقائق والظّواهر الكونية التي لا أثر لها في العمل والاشتغال بها عن الأهمّ ممّا لم يرغب فيه الشّرع.

حديث المرآة

يتمثّل لي أنّ ممارسة الطبّ لم تعد صعبة، ولم يعد للأطباء جهد كالجهد الذي كان يبذله الأطباء الأوّلون الذين لا يجدون إلاّ جهدهم فيسخّرون وسائلهم المبنيّة على التّجربة والخبرة والفطنة والفِراسة (بكسر الفاء، ومن فتح الفاء فاضربْ راسَه)، ومنهم من يهتدي إلى تشخيص المرض بجسِّ النّبض، أو يستدلّ بشحوب الجلد، وما يطرأ عليه من تغير، ونبرة الصّوت وقوّته وضعفه، ومن انحراف المزاج ولون البول.

واليوم يأتي المريض إلى الطبيب، فإن كان ما يشكو منه المريض عويصًا طلب منه تحليلاً، فإن ظهر من خلال التّحليل شيء قال له: عندك كذا وكذا، وكتب له دواء، وفي معظم الأحيان يكون مضادًّا حيويًّا، ومُسكّنًا للألم ونوعًا من الفيتامين، وشيئا آخر على حسب الحال، كأن يكتب له

مُزيلاً للاحتقان أو مُخففًا من الحساسية، وكثيرًا ما يُسكِت جُؤار المرضى وأصحاب العلل المضادات الحيويّة التي أخفت عيوبَ الأطبّاء، فلو كان مثلاً عند المريض التهابٌ في الحنجرة صرف المضادات المشهورة لالتهابات الحلق كـ (الأقمنتين والأموكسيل) وغيرهما، وإن كان لديه التهابٌ في البول طلب تحليل بول، وربما طلب مزرعةً لتحديد الميكروب الذي يناسبه الدواء المناسب، ثم صرف له الدّواء بناء على ما انتهت إليه التحليلات.

ويقلّ في أطباء اليوم من يحدد الأسباب بتفصيل، ولا يكاد يوجد من يذكر منافع الأغذية، ويُرشد إلى النّافع وترك ما يضرّ منها أو تركِ الإكثار منها، وجعلوا لذلك تخصصًا مستقلاً.

لا جرم أن الطبّ في العصر الحاضر فائقٌ في تشخيص الدّاء في معظم الحالات بسبب الأجهزة والتّطور، وفي بعض الأحيان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً إلى معرفة الدّاء، والمريض يئنّ من شدّة الآلام، والأجهزة تقدّم نتائج سليمة، وربما كان أنينُ المريض وتألمه من جرّاء دواء أعطاه الأطباء بناءً على تشخيص خاطئ.

وهو متقدِّم أيضًا في الجراحة، وفي بعض الأحايين يجري عمليات لا حاجة لها وهي مبنية على تشخيص ظنيّ، وربما كانت العملية جناية على المريض فتفتك به.

وهو متقدم أيضًا في تسكين الألم في أكثر الحالات، وفي التعجيل بإزالته خاصّة إذا كان ميكروبًا كالمضادّات، وأمّا الأدوية الأخرى فطويلة الأجل.

وإن كان ما يشكو منه المريض أمرًا خفيفًا أعطاه مُسكِّنًا ومُضادًّا خفيفًا أو اكتفى بأحدهما، وربما كتب له الدّواء قبل أن يكمل المريض شرح

ما يعاني منه.

ورأيتُ مستوى الأطباء واختلاف مراتبهم في معرفتهم كمراتب زملائنا في علوم الشّريعة والعربية، البارع فيهم نادر، والقويّ فيهم قليل، والجيّد فيهم كثير، والضّعيف فيهم أكثر.

وكثيرٌ من المداواة اليوم هي للأعراض لا للأمراض.

توالدُ الفِكَر

من الكاتبين من يكتب فكرة تسبق كتابته، عرف حدودها وجوهرها، ولم يبق إلاّ إلباسها ثوب البيان، فيكتبها كما هي من غير زيادة ولا نقص، وهؤلاء منظَّمون عقليًّا، محدودو الملكات في الغالب.

وآخرون يبدءون بفكرة، فتهديهم خواطرهم حين الكتابة إلى فكرة أخرى ثم أخرى، وقد تتوالى على بعضهم الفِكَرُ فيخرج بمجموعة من الأفكار.

وآخرون لا يحتاجون إلاّ إلى أن يمسكوا بالقلم، فإذا كتبوا كان ذلك مفتاحًا لما اختبأ في ذهن الواحد منهم، ثم لا يلبث أن يجد ذهنًا سيَّالاً، وفكرًا دفَّاقًا، واستحضارًا سبَّاقًا. وهؤلاء في الغالب فوضويون في تفكيرهم.

ربِّ أوزعني

عليك إذا جاوزتَ الأربعين أن تعامل نفسك في قواك الجسديّة والشّهوانيّة والغضبية على أنّك في ضَعف، لا على أنّك في قُوّة، ولا تغرنك حيويّتك، فإن أقوى رَفسةٍ يرفسها المذبوح حين خروج رُوحِه، ثمّ إنّك في هذا العُمر إلى ضَعف، وأهل المعرفة والطّب مجمعون على

ذلك، ومعظم أمـراض الوراثـة تبـدأ إطلالـة رأسـها بعـد تمـام الأربعـين واكتمال القوّة، وليس بعد الكمال إلاّ النُّقصان، وكلّ ما بلغ الحدّ انتهى، وما أحسن قول من قال:

إذا تَـــمَّ شـــيءٌ بـــدا نقصـــه   ترقَّـــبْ زوالا إذا قيـــل: تَـــمّْ

فلا تُشتِّت قواك وتعبث بهـا بالإسـراف في مطـامع الـنّفس والهـوى، وحمل الأثقال، فلكلّ قوة ما يناسبها، ومكابرة النّفس لإخفاء ما بهـا مـن ضَعف، و الاغترار بنشاط عـارض لم يسـبق لـه سـابقة أطـاح بكـثير مـن النّاس، لا سيّما الخلفاء والزّعماء أرادوا رَدّ إشمات العِدَا، وإثبـات أنهـم على ما كانوا عليـه أو أشـدّ، والله عـز وجـل يقـول: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

تصالح الحمقى

إذا تصالح الأحمقان أو الحمقاوان أو الحمقى أو الحمقاوات، ذكر كلّ واحد في عتابه من عيوب الآخر ما يوقد ما انطفأ من نيران العداوة، وربما تذكّر الواحد منهم أمرًا أو قولاً مضى على حدوثه أعوام كـثيرة. فيعـودون لما كانوا عليه أو أشدّ.

غلطة الحكيم

يذكر عن (جالينوس) الحكيم أنه قال: «ما دخل الرُّمَّان بطنًـا فاسـدًا إلَّا أصلحه، ولا دخل التّمر جوفًا فاسدًا إلَّا أفسده».

هذه واحدة من القواعد التي يتلقّاها الخلف عن السّلف ويتناقلونها دون تحقيق، ويلغـون عقـولهم وإدراكـاتهم وبطـونهم، ولا يبقـى إلاّ تصـديق

بلا نظر ولا رويّة ولا تمحيص؛ إذ كيف يكون التّمر مُفسدًا للجوف، بل لا يدخل في جوف إلاّ أفسده، وهو دواء من الأدوية، وغذاء من الأغذية، وفاكهة يتفكّه بها؟! وكيف يمتنّ الله على عباده بما يفسد بطونهم؟!

انظر كيف يكون الخطَلُ على ألسنة الناقلين بلا بصيرة ولا نقد، ثم انظر إلى بطون كلّ الخلق أو جمهورهم، فما منهم من أحد إلاّ ودخل التّمر جوفه، وليس من مسلم صام منذ فرض الصيام إلاّ كان التّمر من طعامه إلاّ ما ندر، لا بل انظر إلى أقوام لم يكن لهم طعام سواه، وأولهم أهل بيت النبي ﷺ، إذ كان يمرّ عليهم الهلال والهلالان (الشهر والشهران) ولا يوقد لهم نار، ولا طعامٌ لهم غيره وغير الماء.

فمن أظلم ممن كذّب بطنه، وأغمض عينه، وألغى عقله، وأعرض عن الصّدق، وكذّب به؛ لقولة كاذبة خاطئة، حُكيت عن فاضل أو حكيم لم يصب فيها، أو لا تصحّ عنه أصلاً، ولعلّها من تحاسد التجّار، فبائع الزّبيب لا يحب لبائع التّمر إلاّ كسادًا، ولا يألوه إلاّ خبالاً وفسادًا.

عجبٌ عجابٌ

إنّه لعجب، و عجبٌ لا ينتهي أن يكون للعالم هذه الوسيلة التي تصل طرف الأرض بطرفها في أقلّ من يوم، وتصل إلينا أنباء العالم وكوارثه حيَّةً تسعى إلينا عبر الأثير في أقلّ من ساعة على أكبر تقدير، ويكون في الناس من يموت من التُّخمة والبِطنة وإدخال الطّعام!!

وعجبٌ أيضًا أن يكون عناء ما يقارب ثلث العالم من كثرة الطّعام لا من قلّته!! وعجبٌ أن ترى براميل القمائم ملأى من الطّيبات، ثم نجد مع هذا كلّه ومع كثرة الوسائل وقوتها آلافًا مؤلفة في بلدان العالم قريبة أو مجاورة لنا تموت كلّ يوم من الجوع والمخمصة، وأن تقول الإحصائيات: إنّه

يموت في كلّ ثلاث ثوان طفل في إفريقيا السّوداء من الجوع وقلّة الدّواء .. إنّه إذا استغرق وقت قراءتك لهذه الصّحيفة خمس دقائق فمعنى ذلك أنّ هذه المدّة تكفي أن يموت فيها مئة طفل، وفي السّاعة ألف طفل ومئتا طفل.

فلا تنزعجوا - أيّها المسلمون - حين يسحب بساط الإسلام من تحت أرجلكم، فإن غَريزة حبّ البقاء ثابتة في الأنفس، فهم حين يرون من يقدّم لهم الغذاء والدّواء ماضون معه، معجبون بدينه، عبيدٌ لإحسانه، فالإنسان عبد الإحسان.

التَّراجم

التّراجم نُزهة العالم والأديب، يجدان فيها متعة الرّوح والعقل، وهما مرآتهما يبحثان فيها عن أنفسهما، ففيها الطبيعة المشاكلة، والسّجية المشابهة، وفيها ما يشحذ الهمّة ويحدّ الخاطر، ويحمي الفكر، ويرى الإنسان أن في النّاس من أوصله اجتهاده إلى حيث كان، وفيهم من نحا به فكره إلى جانب النقص، وفيهم من قتله لسانه، وفيهم من كان لسانه سبب نجاته.

ولم يزل أهل العلم والأدب يرون فيها سلوانهم وأنسهم وبهجة مجلسهم، ومنهم من صنّف فيها وجمع .. ومن عادتهم التوسّع في عبارات الثّناء والمدح، ومن عادة النّاس قبول ذلك، كقولهم: العَلَم الأوحد، فريد العصر، ووحيد الدهر، وعلم الأعلام، وشيخ الإسلام، وخاتمة المجددين، ونحو ذلك.

وكتاب (الأعلام) للزِّرِكْلي من كتب التّراجم الخالية من ذلك إلّا ما ندر، مع دقّة العبارة، وجودة الإشارة، وكونه أجمع كتاب لأعلام

النّاس، وقد ذُيِّل عليه، وسيطول ذيله - بإذن الله - ما بقي في النـاس مـن يحبّ العلم وأهله.

من وسائل إبليس

يعمد الشيطان إلى الحريص للاستيقاظ مـن النّـوم قبـل خـروج وقـت الصّلاة أو وقت الجماعة، فيعرض عليه قبل نهاية الوقت بـدقائق (فيلمًـا) يشتمل على قصة قصيرة تحزنـه أو تفرحـه، أو ألاعيـب تسلّيه، أو متعـة يشغله بها، حتى إذا فات الوقتُ تركه وفكَّ قيدَه.

وأمّا ضعيف الهمّة عن القيام، الكسلان بطبعه فهذا يعرض لـه (فيلمًـا) طويلاً، أو مسلسلاً متعدِّد الحلقات، أو مسرحيّةً ذات فصول، فيقوم مـن نومه كما جاء في الحديث: «خبيث النّفس، كسلان». خبيث الـنّفس؛ لمـا كان من استيلاء الشّيطان وعقده عليه. وكسلان؛ لأنه أضعف همّته بإكثاره من الغذاء - أعني غذاء الرُّوح - وهو النوم، ومن أكثر من شيء أضرَّ بـه، إلاّ العلم وما والاه.

فإذا كان الشّيطان قاعدًا على الصّراط المستقيم يقطع الطّريق على فاعل الخير والعملِ الصَّالح؛ فليكن المسلمُ علـى حـذر منـه، عالمًـا بخطواتـه وحيله ومكره، وليعلم أنّ اتّقاء كيـده ومكـره سـهلٌ ميسَّـر لا كلفـةَ فيـه، ولا مشقّة.

ترتيب القرآن

لو كان ترتيب سور القرآن عن اجتـهاد مـن أصـحاب الـنّبي ﷺ لكـان ترتيبه من أطول سورة إلى أقصر سورة، أو بأقصر سورة إلى أطول سورة، أو على ترتيب نزوله، ولكنّه ليس كذلك.

فسورة النّساء أطول من سورة آل عمران، وقد جُعِلت بعدها، وسـورة

الرّعد وإبراهيم والحِجر بين سور أطول منها، وكذلك سورة لقمان والسجدة، كما ذكر ذلك ابنُ حزم - رحمه الله -. فلم يبق إلاّ احتمالان؛ أحدهما: أن يكون ترتيبه توقيفيًّا، لا اجتهادَ فيه. والثاني: أن يكون بعضُه اجتهاديًّا وبعضُه توقيفيًّا.

والظّاهر أنّه توقيفيٌّ كلّه؛ لأنّ من الصحابة مَن حفظ القرآن في عهد النّبيّ ﷺ، وبعيد أن يكون ما جمعه في صدره مخالفًا لما كان عليه النّبيّ ﷺ، وأيضًا لا يعرف اختلاف بين الصحابة في ذلك، ولو كان عن اجتهاد منهم لعارض بعضهم بعضًا بما سمع كلّ واحد منهم من النبي ﷺ.

ضعيف الهمّة

ضعيف الهمّة الكسول، المهزول ابن المهازيل لا يشعر بشأن المعالي، من علم ينتفع به، أو شهادة عالية، أو عمل صالح يزكو به.

لا يشعر إلاّ بثقلها وعنائها وما يلقاه في طريقه إليها من نَصَب ومشاق، كالدّابة التي تحمل في الأسفار غَوالي الأسفار، أو تحمل على ظهورها الجوهر والألماس وهي لا تدرك من ذلك إلاّ ثقلها، ولا تحسّ إلاّ بتعبها.

ومن علامة صاحب الهمّة القاصرة أنّه يعيش ليومه ويعمل ليومه كما تفعل الدَّوابّ أيضًا، غير أنّه يزيد عليها أنّه يعمل ليومه - إن عملَ - بيده، ويعمل لغده بأمانيه وأحلامه، ويعلّق عجزه بأمر كبير لا يمكنه الحصول عليه، همّته هامة في الأحلام، قامة في الأماني، ولكنها في العمل قاع صفصف، مرّة يقول: لو أنّ الله أعطاني لكنتُ ...، وتارة يقول في شيء فات: لو أنّ لي كرّة.

الجهل

الجهل داء الأمم، ومرض المجتمعات، وعدوّ الحضارات، ومفرق

الجماعات، والجاهلون بربّهم وعظمته وقدرته وحكمته هم أضل الناس وأجهلهم، ولهذا قال الله عن اليهود الذين أُمروا بالعمل بالتوراة وما جاء فيها من حِكم وأحكام، ولم يعملوا بذلك، قال عنهم: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

إنّ الأمّة التي تركن إلى الجهل، وتعرض عن العلم خَليقة بأن تكون آخر الركب في حضارتها ورقيها .. ولقد شهد التّاريخ والواقع أنّ للجهل آثارًا ضخمةً، لها أثرها على الأمّة وسيرتها، ومن ذلك:

١ - ضعف الوازع الدّيني، وهذا هو سبب الجهل بالله ودينه، فإنّ الجاهل لا يدري الطّريق الذي ينجيه من عذاب الله، ويهديه إلى طريق مستقيم.

٢- حصول مداخل للشيّطان كثيرة يدخل على أصحابها عن طريق الشّهوة تارة، وعن طريق الشّبهة تارة، والشّبهة ظُلمة لا يكشفها إلاّ نور العلم المؤيّد بتوفيق الله تعالى .. إنّ الذين يكفّرون المسلمين بلا برهان هم حصادٌ من حصاد الجهل، وثمرةٌ من ثمراته.

٣ - السُّقوط تحت قدم الأعداء .. فما يصيب العالم المسلم اليوم من ذُلّ هو بسبب حاجتهم إلى قوّة غيرهم، وسببُ ذلك أنّ فريقًا من المسلمين كان يظن أن علوم الدّنيا التي تنهض بالحضارة وتقويها، والتي أخذ بها الأوربيون هو نوع من التّشبث بالدّنيا، وتقليد الأمم الكافرة، فكرهوا ذلك وحرّموه .. وهم مخطئون.

لذّةُ الحقّ

كان الاعتراف بالحقّ للمخالف والنّاقد من أشقّ الأمور على نفسي، فجاهدتُ نفسي في ذلك حتى أقنعتُها بالتّفكير فيه وقبوله، ولو في الباطن

ومحبّته؛ لأنّه الحقّ وهو الغاية، ولم أزل أروضها وأقرأ سيرَ الحكماء والعلماء والحُلَماء في اعترافهم لخصومهم بما تبيّن لهم أنّه الحقّ؛ حتى وجدتُ بردَ اليقين والرّضا التّامّ بقبول الحقّ، بل صارت له حين الرّجوع إليه لَذة لا يكاد يعادلها شيءٌ.

فلذة السّرور بالحقّ أكبر ممّا تلذ به الأعيُن، وتستمع به الآذان، وتذوقه الألسُن، ولا يجدُ متعةَ ذلك إلاّ من بلغ منزلة التّجرّد، أعني: التّجرّد من كلّ داعٍ من دواعي الهوى، والفناء الكامل في الحقيقة حيث كانت، بحيث يستوي عنده أن يكون الحقّ جرى على لسانه أو جرى على لسان غيره؛ لأنّه إن جرى على لسانه سرّه أن يكون سببًا في صدور الحقّ منه، وإن كان جرى على لسان غيره سرّه أن لم يبِتْ على غير الحقّ، وأنه وفّق إليه. ويجد من بعد ذلك لذّةً أخرى، هي لذّة قهر الهوى وما يخالطها من أنوارٍ مبصرة.

والنّور والحقّ قرينان لا يفترقان، ولو قلت: النّور هو الذي يكشف الحقّ، وبه يتجلّى؛ لصدقت. ولو قلتُ: الحقّ هو منطلق الأنوار الكاشفة؛ لما أبعدت، فهو النور من أيّ النواحي أتيته .. ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

أنواعُ التُّربة !!

كان من أوّل ما درسناه في المرحلة الأولى من الدّراسة في (مادة العلوم) أنّنا عرفنا انقسامَ التُّربة إلى ثلاثة أقسام: تربة رملية، وتربة طينيَّة، وتربة صفراء.

فأمّا الطّينيَّة فإنّها تمسكُ الماء ولا تنبتُ العشب، وأمّا الرّملية فلا تمسك ولا تنبت، وأمّا الصّفراء فتمسك الماء وتنبت العشب.

فلمّا سمعتُ حديثَ النّبيِّ ﷺ الذي فيه: أنّه مثل صاحب العلم .. وضرب مثل استقبال النّاس للهدى والعلم بالأرض، وقسّمها إلى ثلاث: أرض تمسك الماء وتنبت العشب، وأرض تمسك ولا تنبت، وأرض ثالثة إنّما هي قيعانٌ لا تمسك ماءً ولا تنبتُ كلأً = وددتُ لو قُرن ذلك التّعليم بهذا الحديث ليكون أقوى وأقوَم قيلاً، وأقرب إلى الفَهم وتقوية الذّهن، وأجود في التّخيل، ونصّ الحديث: «مَثَلُ ما بَعَثَني الله بِهِ من الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ منها نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتْ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ منها أَجَادِبُ أَمْسَكَتْ الْمَاءَ فَنَفَعَ الله بها النّاس فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ منها طَائِفَةً أُخْرَى إنما هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً ولا تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ من فَقُهَ في دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ ما بَعَثَنِي الله بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ من لم يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، ولم يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الذي أُرْسِلْتُ بِهِ».

اعرفوني ..!!

يسرق الشّيطان من عمل المرء ولو كان في حرز الإخلاص في ظنّه .. تكون له حاجة في دائرةٍ أو جهةٍ من الجهات الحكومية وغير الحكومية، يريد قضاءها، وخير وسيلة إلى تحقيق حاجته أن يُلقي كلمةً بعد صلاة الظهر حيث يصلّي الموظفون، فإذا فرغ من موعظته مال إلى مكتب المدير، وأغلق الباب، وكرّم وربما وافق صومَه، وسرّه أن يكشف أمرَه، فيقول: إنّي صائم. فتزداد العنايةُ ويحسن الاعتقادُ فيه، وقال للمسئول - لما قضي الأمر -: إنّي أُشهِد اللهَ على محبّتك، وأسأل الله أن يكثّر من أمثالك.

ولو لم تقضَ حاجته لما أحبَّه، سرقة خفية يختلسها الشيطان من إخلاصنا، وقبلةٌ في الرّأس وتبجيلة متكلّفة، ومِدْحة زائفة هي الطّريق

السّريع إلى أن يمنح الطالبُ تزكيةً يفيض فيها الثّناء عليه خُلُقًا ودينًا، وأن يجعله واحدًا من الأصناف الثّمانية من أصحاب الزّكاة .. وأن يجعل (هيانَ بن بيّان) رجلاً صالحًا.

كلمة بين كلمتين

الوعظ تربيةٌ وسياسةٌ، وهو من الخير الذي إذا كثّر منه الواعظ قلّ نفعه، كالإكثار من الماء والطّعام والنّكاح، ولهذا كان نبيّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يتخولُ أصحابَه بالموعظة ولا يكثر عليهم مخافة السّآمة عليهم، وَفَقِهَ علماؤهم ذلك كابن مسعود وغيره.

والموعظة إذا صادفت قلبًا ظامئًا ارتوى وكان لارتوائه لذّة، فمداومة الوعظ لموعوظ بعينه ضَعفٌ في الفقه وخللٌ في سياسة التربية؛ لأنّ النّفوس تملّ بالإكثار من تحريك العاطفة، وهكذا كل ما يحرّك العاطفة يضعفها ويضعف إحساسها بكثرة الإمساس، فالمصاب بأوّل مصيبة يقع في قلبه من الحزن والأسى شيء عظيم لا يقدره إلاّ مثله، فإذا توالت عليه خفّف أوائلَها أواخرُها، ومن ذلك ما يصاب به المسلمون فإنهم يفزعون في أوّل مرّة ثم لا يزال بعد ذلك ينقص همّهم ونجدتهم شيئًا فشيئًا، وعرف ذلك عدوّهم فرأوا أنّ الأولى إظهار آثار عدوانهم ليكون في أعينهم أمرًا غير غريب لاعتياد أنفسهم عليه ورؤيتهم له كلّ حين فتضعف فيهم الحمية وتقل الغيرة.

فإن قيل: فما القول في الإكثار من العلم؟ قلنا: العلم ليس كالوعظ، لأنّ العلم يخاطب العقل، ومتعة العقل لا نهاية لها، والوعظ يخاطب العاطفة والعاطفة تسأم، فمنهوم العلم لا يشبع.

الرِّفْقُ

قولوا للمعلمين المتعنتين الذين يسلكون في تربيتهم النّظام العسكري،

لا الخلق النّبوي: إن نبيّنا ﷺ يقول: إنني لم أبعث معنتًا ولا متعنتًا، وإنّما بعثت معلمًا ميسرًا.

ولكم في رسول الله أسوة حسنة، هنالك فرقٌ بين إعداد الجند وإعداد النّشأ ليكونوا مربّين ومرشدين معلمين.

من العجائب

١- من عجائب بني آدم أنّهم يريدون سُرعة ما ينتظرونه ممّا يحبّون، ويريدون أن تمشي أيام عمرهم على مهل.

٢- النّاس يتفاوتون في الفصل بين العقل والعاطفة، وأسعدهم من غلّب مواجيدَ القلب على يبس العقل في العبوديّة، وغلّب جانب العقل في حياته المعيشية على رقّة العاطفة العاصفة. وأمّا ترك العاطفة بالمرّة فقسوة لا تكون في المؤمن، وكذلك إلغاء العقل جملةً من صفات أهل الضّلال.

٣- الحكمة يؤتيها الله من يشاء، وقد يؤتيها الكافر والفاسق، ولكن الحكمة حكمتان حكمة الدّنيا والآخرة، وحكمة الدّنيا، فالأولى لا يؤتاها إلاّ المؤمن.

غَلبةُ الظّنّ

قلتُ: ألغى المحدّثون وكثيرٌ من الفقهاء الحكمَ بالقول بغلبة الظّنّ في الرِّواية، من ذلك: الحديث المرسل، إذا كان من رواية ثقة عن ثقة، كأن يكون إلى الحَسَن عن أبي هريرة. والحسن لم يدرك أبا هريرة؛ لكن الأغلب أنّه لم يَروه عنه إلاّ لثبوته عنده، وأسقط الواسطة للاختصار أو لشرف الرّواية عنه، أو رواه عن امرأة لا يريد ذكرها، أو رجل نسي اسمَه، أو لا يريد ذكره، كما نفعل اليوم حين نقول بصيغة الجزم: قال فلان.

ولم يكن في عصر الحسن اصطلاحات التّحديث والالتزام بـ (سمعتُ، أو حدّثني، أو أخبرني).

ولكننا مع ذلك نغلق باب الظّن ولو كان مدخله صغيرًا، ونقول: يمكن أن يكون صحيحًا، ولكننا لا نأخذ دين الله إلاّ من طريق سَويٍّ واضح لا عوج في طريقه، وما يقال في المُرسل: يقال في المنقطع، معضلاً كان، أو غيره. وكذلك المُعَلّق، إذا لم يكن فيمن ذُكِر من رواته مَن طُعِن في حفظه أو عدالته.

حشوُ الحَشَا

يكون لدى الإنسان اضطراب يسير في بعض أعضائه التي يكون لها أثر عامّ على بدنه، فيظن أنه بلي بأمراض كثيرة، كالخَلل الذي يكون في الأمعاء وما به خلل إلاّ من كثرة الأطعمة وحشو المِعَى بثقيلها وخفيفها ورطبها ويابسها، وحارِّها وباردها وسوء الخلط، فيحصل من جرّاء ذلك انحراف في المزاج واضطراب في الهضم، وعُسْرٌ فيه كبير، وضعف في شهوة الطعام، واختلاج في النَّفس، ووهَن في القوى، وأعراض أخرى، فيذهب ذلك به كلّ مذهب، مرّة يتّهم كُلاه، وأخرى يتّهم كبده، وثالثة يظن أن الخلل في دمه، ثم ينكشف له بعد الفحص والتحليل أنّ ظنه مَينٌ لا حقيقة له، وأن أعضاءه ودمه في أحسن حال.

وكثيرٌ من أنواع الصّداع سببها المعدة أو الأمعاء، دقيقها أو جليلها، وعلى مَن كان بلاؤه من طعامه أن يخفف ما استطاع، وأن يقلّل من الخلط، وعليه أن يختار إحدى المُتعتين: الصّحة، أو شهوة الطعام.

فإن كانت كثرة الطعام عنده ألذّ من الصّحة فقد أخطأ الطّريق، واستبدل لذّة عاجلة بلذّة باقية، وأكثر النّاس كذلك في عامّة أمورهم، وكلّ

ذلك أمثلة صغرى لاختيارهم الأكبر، وهو إيثارهم العاجلة الفانية على الآخرة الدّائمة. وهي علة قديمة كانت في الأولين على قلّة زخرف الحياة في أزمانهم وقلّة المتع، فهي في الآخرين أقوى وأكثر، وفي ذلك يقول مولانا سبحانه: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى]. ثم أخبر أن هذا مثبت في كتب الأولين المنزلة، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى].

العملُ بعد الموت !!

تأمّلت في العمل الصّالح الذي يبقى بعد الموت ولا ينقطع إلا بانقطاعه، وهو في الثّلاث التي قال فيها النبي ﷺ: «**إذا مات الإنسان[1] انقطع عمله إلاّ من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علم ينتفع به أو ولدٍ صالح يدعو له**» رواه مسلم.

فنظرت في الصّدقة الجارية، فإذا هي عظيمة النّفع مع تفاوت على حسب حاجة الناس إليها، كالماء والطعام، والإنفاق على اليتامى، وبناء الدور، وإصلاح الطرق، وحفر الآبار، وعمارة المساجد، وبناء المشافي، ونحو ذلك. غير أنّ الصّدقة عرضة للنّفاد، أو النّقص والتّلف، والهدم والضياع، وقد تهلك لآفة من آفات الزّلازل والحرب والمحن وسوءِ الفتن؛ لأنها محدودة.

ونظرتُ في الولد الصّالح ودعائه فإذا هو أعظم نفعًا وأكثر بركة، لنصوص خاصّة وردت في ذلك، منها ما رواه ابن ماجه - وهو من مفرداته التي تفرّد بها عن سائر الكتب السّتة، وصحّ إسناده -،

(١) المشهور على الألسنة: «إذا مات ابن آدم»، وهذا اللفظ لم يثبت، والأول هو الصحيح والأشمل، ويدخل فيه أبو البشر آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ولا يحضرني لفظه الآن، وحاصله أنّ الوالدين ترفع درجتهما وهما في البرزخ، فيسألان عن ذلك، فيقال لهما: ذلك بدعاء ولدكما لكما. غير أن صلاح الولد مظنون، وكذلك بقاؤه، وكذلك دعاؤه، فقد يكون صالحًا ويغفل عن الدّعاء، أو لا يكثر منه، وقد يكون للولد أعمال من نوع الصّدقة الجارية فيجمع بين الصّلاح والصّدقة الجارية.

ثم نظرت في العلم الذي يُنتفع به فإذا هو الكنز الذي لا ينفد، والحبل الذي يمتدّ ويشتدّ، والبحر الذي لا يغيض. فإن الله يحيي بالعلم من مات، ويبدّد به الظلمات، وينير به الحياة، ويبقى في الناس ما بقي الناس، وأسعد من ترك علمًا ينتفع به مَن كان أكثر إخلاصًا، وأكثرهم خيرًا وحسنةً مَن ترك علمًا في صدور الناس، وكتابةً في قرطاس.

وانظر إلى من مات من أهل العلم الذين تركوا علومًا نافعة بكتابة كتبوها أو مؤلفات صنّفوها، أو دروس سجّلوها، أو جهالة رفعوها، نقرأ اليوم ما كتبوه وما صنّفوه، ونشاهد دروسهم ومحاضراتهم، ونسمع تسجيلاتهم، ويذكرهم تلاميذُهم، فيأتيهم رزق حسناتهم من كلّ مكان، ولعلّه يكون أكثر ممّا كان في حياتهم.

لهذا نوصي مَن كان من أهل العلم أن يضرب في جميع ذلك بسهم وافر، وأن لا يحقر من أمر ما ذكرنا شيئًا، ولقد كثرت الوسائل اليوم التي تحفظ العلم وتذيعه وتنشره وتخلّده، فمَن نظر إلى هذه الوسائل نظرة استخفاف بشأنها وبما تحفظه وسرى إليه داء النّفور من كلّ جديد، فقد أضاع على نفسه الخير.

ولا نوصي بذلك أهل العلم وحدهم، بل نوصي كل من أراد الخير أن يكون له صدقة جارية، وأن يجعل منها صدقة في علم ينتفع به، من شراء مصاحف وكتب أو صدقة على الفقراء المنقطعين لطلب العلم، فهذا أمر

لا يكاد يعدله من أنواع الصَّدقة شيء.

الطَّردُ من الأحْواز . . !!

تعسير اليسير أيسرُ من تيسير العسير، والبلاغة في ذوقها الرّفيع حاكمة على التعقيد في التركيب والمعنى بالطرد من أحوازها ورياضها الشريفة، وتجعل ذلك خللاً في نظم الكلام، وتشويشًا على صفاء الأذهان.

وأكبر ما نحتاجه اليوم للطّلاب الرّاغبين في العلم هو التّيسير، والإيجاز الواضح المفصّل. ولا يعمد البليغ إلى الإغراب في كلامه إلاّ لسبب يدعوه إلى ذلك، كإظهار ثراء اللّغة، وإفادة السّامع بلفظ غريب، أو تحريك همّة للأديب في مقام يستدعي ذلك. وأمّا إذا كان في مقام إفهامه مسائل العلم ومقام الوعظ فذلك ممّا ينافر البلاغة.

فإن كان المخاطبون خلطاء، فيهم الذّكي ومن هو دون ذلك، والعالم والعامّي، والعربي ومَن لا يتقن العربية، فأيسر عبارة هي المتعيّنة، ومُوجِبُ البيان الذي يوصل طرف الأداء بطرف آخر هو الغاية من البيان، وهو إفهام المخاطب. وكلّما أوصل المؤدّي المعنى بأقرب عبارة وأوجزها كان أقرب إلى البلاغة؛ لأنّه هو المقصود؛ فقولُ الإنسان يشير إلى ابن عمّه: هذا ابن عمّي، كقوله: هذا ابن عمّ ابن أخي عمّ أبي. وقوله: هذه أمُّه، كقوله: هذه أختُ خالته التي لا أخت لها غيرها.

وبعض مقرراتنا اليوم مملوءة بالتعقيد، محشوة بمسائل لا تناسب ملكات الدّارسين، ولم تمتزج أساليبها بما يُشوِّق، بل بما يعوِّق، من عبارات واصطلاحات وموضوعات لا ثمرة لها حلوة، أو لا وجود لها اليوم، كبعض أنواع المعاملات، وكأنواع العبيد، من مُبعَّض ومدبّر ومكاتب، والتّطويل في ذلك وفيما يتعلق به، وفي الاشتغال بالتّعريفات المعقّدة. ونعوذ بالله من علم لا ينفع.

بيني وبينكم .. !!

إذا خلا الزّمان من الأحداث العظام اشتغل النّاسُ بصغارها، ولا بدّ لهم من مادّة يفيضون فيها، ويزيدون وينقصون، والمحظوظ من كان حديثهم عنه بخير؛ لخيرٍ وقع له، أو منصب نُصِبَ له، أو فضل امتاز به.

والبائسُ من قضي عليه بما لا يسرّه، من شرٍّ نزل به، كخطيئة أذيعت، أو فضيحة بُلي بها، أو إعفائه من عمله، فلا تسل يومَ لا يكون إلاّ صغار النّوازل كيف تكون الأقاويل، وتصير الأفاعيل، من ألسنة تقول، وأقلام تكتب، ورءوس تهتز، وأصابع تشير، وأعين تدور.

وإنّي - والموضوع (بيني وبينكم) - لأعرف ويعرف غيري أمرًا وقع قبل عام وبعض عام، وعالمنا في سكون، فكان حديثَ المجالس، وشَحْذَ الذّاهن والهاجس، وخبرَ السُّمّار، ومدادَ الكتّاب، ومَدَد الأنباء، فلمّا تصرَّم العام ووقع مثل ذلك الأمر أعرضوا عنه، وقالوا بلسان الحال: هذا لا يشغل البال، ولا يهيج البَلْبال. ولا حاجة لأن يقولوا: العالم مشغول بتقارب الزّمان، وتقلّب البلدان، ومصير الرّاحلين، وثورات الشّعوب بحقٍّ وغير حقّ. فحال العرب اليوم كبحرٍ لُجيٍّ يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ.

وذاب ذلك الخبرُ الذي صغرته المدلهمّات كما يذوب الملح في ذلك البحر، واندرج فيها كما يندرج أحد العددين المتداخلين في الآخر، في الحساب، وكطواف الوداع يدخل في طواف الزّيارة حين الرّحيل، وصوم يوم الاثنين في عاشوراء لمن اعتاده، وكالوضوء يجزئ عنه غسل التّطهر، وكالجرح بعد القتل إذا لم يكن مُثلَة، وكالسّدس للأب في جميع المال إن كان له ولدٌ، ولا وراث غيره، وكالقياس مع النّص في الأصول، وكياء الكُرسيّ في النّسب في الصَّرف، وكذكاة جنين البهيمة بذكاة أمّه، وكالدّنيا في الآخرة في قلوب العارفين .. والحكمُ لله العلي الكبير.

من شعر إبليس !!

ادّعاءٌ، أو اغتصابٌ، أو تغليبُ ظنٍّ، أو خلطٌ، أو غفلةٌ، أو وهمٌ = نسبةُ بيتٍ أو أبياتٍ إلى غير قائليها .. هذا ديوان عليّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وديوان أبي العتاهية، والشّافعيّ، كلّ فيه بعض ما في الآخر.

وهذا البيت المشهور:

ولو لم يكن في كفه غيرُ روحه   لجاد بها، فليتقِ اللهَ سائلُه

نَسَبَه ابنُ منقذ إلى زهير، وعزاهُ محمد بن داود في (الزُّهَرَة) إلى زياد بن الأعجم، وحكاه الواحديّ في (شرح ديوان المتنبيّ) عن بكر بن النّطاح، وقال صاحب (العقد الفريد) وآخرون: إنّه لأبي تمّام، وجعله ابنُ خلِّكان لزينب بنت الطّثرية في أخيها يزيد، وألصقه أبو الفرج الأصفهانيّ بعبد الله ابن الزبير الأسديّ.

وكل هذا محتملٌ، وأمّا ما لا يحتمل فهو أن يعزوه السَّخاويّ في (الضوء اللامع) إلى واحدٍ من معاصريه في القرن التاسع، والكتب السابقة وغيرها طافحةٌ بنسبته من الجاهلية إلى العصر العباسي.

وجَمَعَ جامعٌ غير مانع من الأشعار المبثوثة في مصنّفات ابن تيمية، وصيّرها في ديوان، وثلثها أو أنقص منه قليلاً ممّا ليس له، وإن استشهد به. وفي كتب التواريخ والتفسير أبياتٌ منسوبة لآدم عليه السلام بعد مقتل هابيل، من البحر الطويل، ولم يكتف من نسبها إليه، بل ملَّح الكُذيبة بأبياتٍ أخرى من شعر إبليس يردّ بها على أبينا آدم من البحر نفسه والقافية، مطلعها:

تنحَّ عن البلاد وساكنيها   فَبِي في الخلد ضاق بك الفسيح

وكنتَ بها وزوجُك في قرارٍ   وقلبك من أذى الدّنيا مُريحُ

ومن المؤرّخين من يخلط بين أميّة بن أبي الصلت الجاهليّ، وبين أميّة ابن عبد العزيز بن أبي الصلت الأندلسي. وأمّا منحول الشعر في شواهد العربية؛ فكثيرٌ.

بَناتُ الفِتَن .. !!

الفتنُ والشّدائد والأزمات مراتعُ خصبة للمغرضين (بالغين والعين)، وأصحاب الأهواء والمبيِّتين، ومن كان مرعى عزمه وهمومه تحقيقَ مصالحه، وهي أيضًا المراعي الخضراء للخوض واللّعب والظنون والمِيُون. ودونكم ملامح ثلاثة لفئات ثلاث:

إحداها: فئة من غير الرّاسخين، كلّما حدثت فتنة عمدوا إلى أحاديث صحيحة أو غير صحيحة، صريحة أو غير صريحة، في فتن آخر الزّمان، فأسقطوها على تلك الوقائع، وتعجلوا في الجزم بمعناها على ما فهموه، وعملوا جهدهم في كتابته وكشفه، كمن يريد الحصول على براءة اختراع في ظنّ لا يُغني من الحقّ شيئًا، وهو كما قال الله سبحانه في (سورة النساء): ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ [١٥٧].

والثانية: فئة تحسن الخوضَ في تحليل الوقائع، وتُوغِل في الاستنباط، كأنما ينظر أصحابها إلى الغيب من ستر رقيق، وترى الواحد منهم يقصّ عليك من أنباء غيبه من سَبْيه ما يقلق الفؤاد، ويفتت الأكباد، ويخيف النّساء والأولاد، وتراه يُحقِّرُ ويكبِّر، ويضع ويرفع، ويرُدّ ويعلّل، ويحرّم ويُحلِّل، ويخبر بعاقبة الأمور، ويُنبئ عن مكنونات الصّدور، ويذيع الأخبار، ويعلن الأخطار .. يخوض في ذلك كلِّه عن فضول وجهل بمقداره وحدوده.

وههنا تجد الجاهل كالعالم، وترى البليدَ ذكيًا، والعاميّ عبقريًّا، والله يقول في (سورة النساء) أيضًا: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟

بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾ [٨٣].

والفئة الثالثة: هم المتربِّصون، اللّاعبون بالمبادئ، الذين لا يدورون مع الحقّ حيث دار، بل يدورن مع المصلحة، ويسيرون إلى حيث تكون القوّة الغالبة، وهم صامتون حتى تكشفهم الأزمات ...

وقد ذمَّ القرآنُ قومًا هذا وصفهم، قال الله سبحانه في (سورة النساء) أيضًا: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [١٤١].

الأجدرُ أن يُذكر أنّ الأزمات هي التي تكشف ما تضمره الأنفس.

العُنْوَان .. !!

وجدتُ كثيرًا من المصنفين المكثرين من التّصنيف من المستقدمين والمستأخرين يعنونِ الواحد منهم لكتابه بعنوان كبير معجب، ثم لا نجد ما تضمنه ذلك الكتاب صادقًا على معنى العنوان، ولا مشتملاً على ما يوجبه داعي معناه .. وسبب ذلك: أنّ محبّ التّصنيف يخطر بباله عنوانٌ جميلٌ يصلح أن يكون كتابًا في فنٍّ من الفنون، ثم يبحث في جمع مادته .. وتكون في الغالب قاصرة.

ومثل هذا مثل مَن يخيط اللّباس حتى إذا أتمّه بحث له عن لابس مناسب يصلح له، وقد يجد له من يصلح له. والأولى أن يفصِّل الملبوس بعد وجود اللابس، وإلّا فقد يقصر أو يطول، أو يضيق أو يتّسع.

حقائق الأشياء

كلمّا تقدّم المرء في العمر استوحش من كثير من الأشياء التي عرفها، وعلّمته التّجارب تفاهة أمور كثيرة لم يكن يراها بعينيه تلك، فيما خلا من

عمره، وصار حاله واحدًا من أمرين:

إمّا أن تتمكن منه الوَحشة، ويذهب من نفسه الأنس، فلا يجد للحياة طعمًا ولا لذّة. وإمّا أن يكبر عقله، فينظر إليها نظر السّاخر منها، المستلّذ بمعرفته لحقيقتها، وما تكشف له منها؛ فإنّ للمعرفة وإدراكها طعمًا يجده العارفون، وبها يسلو عن غوائل ما أصابه منها، وأهل الآخرة أقرب هؤلاء لأنهم يدركون أنّ الحياة الدّنيا متاعُ الغرور.

قوّة الانتباه

للحفظ والإبداع والسّبق والنجاح عواملُ، من أهمّها: قوة الانتباه، ويقظة الحواس، بل هي العامل الأول الذي لا يمكن أن يتخلّف في ناجح أبدًا. وفي الناجحين الفائقين من قد يستوي ذكاؤه بذكاء من دونه بمراحل، لكن قوّة الانتباه لديه أقوى من غيره، وقوة الانتباه تجمع الإعجاب بالأشياء أو استغرابها، وكل شعورٍ قويّ، ألا ترى أن مواقف الخوف لا تُنسى؟! وتجد أذكى الأذكياء من أبلد الناس في ضبط أمور لا يعرفها مثله، كأمور المنزل التي ليست من عمله، وفيهم من لا يستدلّ على بيته إلا بعد مرّاتٍ عديدة، أو لا يحفظ رقم هاتفه، وفيه خرْقٌ في تصريف أموره، وحمقٌ في تدبير حياته.

ولو بسطتُ الكلام في هذا المعنى وذكرتُ شواهد ممّن أعرفهم لطال الكلام في ذلك طول العجب منه.

كِبَر الأسماء

كبر الأسماء لا تدلّ على كبر المسمّيات، ولا صغرها يدلّ على صغرها.

هذه كلمة (سماء)، وكلمة (أرض)، وكلمة (فلك)، وكلمة (كون)،

وكلمة (فيل) وأكثرها ثلاثيّ، وهو أقلّ ما يكون في بناء اسم من الأسماء، ومن أصغر المخلوقات نوعٌ من القمل تُسمّى الواحدة منه: قرعبلانة، ثمانية أحرف، لا يوجد في اللغة اسمٌ بهذا العدد، ومنتهى حروف الأسماء سبعة أحرف، كما قال ابن مالك: «وإن يُزَدْ فما سبعًا عدا».

والأسماءُ والألقابُ التي تُخلع على الأشخاص من أهل العلم والزّعامة لا تنفع بشيءٍ أصحابها، ولا تعبِّرُ لدى أهل الحكمة إلاّ عن معناها في ذاتها معزولة عمّن وُصِف بها ما لم تُصدَّق بفِعال[1].

خلق الإنسان من عَجلٍ

اللّيل والنهار حثيثان في هدم الأعمار .. وترى الواحد منّا إذا كان له مطلبٌ ينتظر إقباله بعد سنين يودّ لو طويت تلك السّنون في ساعة واحدة، ليتمّ له مراده استعجالاً لطِلبته، وكأنّه ذهل عن أنّ تلك الأزمان التي استعجل أوانها، وأراد أن تمرّ سِراعًا هي من سِنيِّ عمره التي يتمنّى أن تسير بِطاءً .. ولا غرابة في ذلك فالإنسانُ مطبوعٌ على حبِّ العاجل ومعرفة المجهول، واستعجال ما يهوى ويؤمِّل ممّا تهواه نفسه في ساعته، وينسى ما أمّله قبل ذلك، كما ذكرناه في موضع آخر.

الحوار

يمنع بعض اللّغويين استعمالَ الحِوار بمعنى المحاورة، ويجعله بمعنى الجواب أو اسمًا لمجموع التّحاور بين طرفين، وهو دقيقٌ. وأمّا المحاورة؛ فهي حكاية كلام كلّ منهما، ومجموع ذلك.

ويرى كثيرٌ من المصلحين فتح باب التّحاور في كلّ شيء، ومع كلّ

(١) تقدّم طرف من الكلام في هذا المعنى، لكن على وجه آخر.

أحد. غير أنّ في الدّين ثوابتَ ومسلماتٍ لا تقبل التّحاور فيها ممّن ينتسب إلى الإسلام، فهل يفتح باب التّحاور في كلّ قضية مع كلّ مَن يُشكِّكُ في الإسلام من أهله، ويتقبل بصدر رحب وقبول حسن، توسعًا في الثّقافة، وحريّة في الرّأيّ والاعتقاد، وتشجيعًا للتّهاون بأمر الدّين، وفتحًا لأبواب الشّكّ.

هذا هو ما تراه اليوم في بعض منابر الفضائيات من اقتحام كبار المسائل من جهلة الدّين وأتباع الهوى .. ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾[المؤمنون: ٧١].

فَلسفةُ التّأثّر

الذين يتأثرون بالحوادث التي تصيب غيرهم أقسام:

فمنهم من هو صادق التأثر تتحرك له عاطفته لذات الحدث فيحزن، أو يبكي، وغالب ذلك في الأمّهات وأكثر الآباء والمحبين. ومنهم من يكون تأثره كذلك أو أبلغ، لكن يَرِد إلى خاطره حين يرى أو يسمع ما حدث لو كان هو المصاب أو حبيب أو قريبٌ، فيتصوّر ذلك فيحزنُ، وربّما فاق حزنُه من هو أولى منه بالحزن. وقد قال لي قائلٌ: إنني حين أخبر أحزنُ حزنًا مشوبًا بفرح، فقلتُ له: لعلّ ذلك لأنك نجوتَ، ولم يكن المصابُ أنت. ومنهم من يتأثّر تبعًا لتأثّر غيره، فإذا علم أنّ صاحبه غيرُ آسٍ ذهب حزنه.

السّاكت

السّاكت في الجُلاّس واحدٌ من ستّة: إمّا أن يكون معجبًا بنفسه، وإمّا أن يكون حييًا، أو خائفًا، أو حذرًا، أو ورِعًا، أو أبكم.

العقل

حدّ العقل التمييز، كما يقول أهل الحكمة، وهو نعمة عظيمة، بل هي أعظم نعمة منحها الله الإنسان، بها يُميَّز عن الحيوان البهيم. سُمِّي عقلاً؛ لأنّه يعقل صاحبَه عن التّهور، والوقوع فيما يُذمّ، فإذا قوي سُمِّي حصاةً، فإذا قوي سُمِّي نُهيةً، وجمعه: نُهَى، لبلوغه النهاية. وجوهر العقل اللّبّ، وجاء في القرآن الثناء على ذوي الألباب كثيرًا، ووصفوا بجليل الفضائل، وليست قوة الذّكاء ولا الدّهاء هي ذات العقل، ففي الأذكياء من ليس بعاقل، فقد يكون الذّكاء شيئًا غير العقل، والكافر غير عاقل؛ لأنّه لم يميّز بين الحقّ والباطل، وفي يوم القيامة يقول الكافرون: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، وقال الله عن اليهود: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤]، وقال عن المنافقين: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

الذاكرة الإعجابية

لي صديقٌ تنطبع في ذهنه المشاهدات والمسموعات بقدر ما يحيط بها من إعجاب وإثارة، ولا تلبث أن تُرى في تصرُّفه وحركته، وتُسمع في قوله .. وقد لا يدري عمّن أخذها، وإذا كُلِّف أو كلّف نفسه بحفظ ما لا يعجبه عسر عليه ذلك، وأخذ منه الحفظ وقتًا، وبه يُعلم أنّ الحافظة لا تعمل وحدها، وأن قوّتها بقوّة جنودها.

قراءةُ الأفكار !!

مِن المتحدثين مَن يقرأ أفكار مَن حولَه مِن الجُلاّس خاصّة في مقام الشّرح والتّعليم والنُّصح، ويفهم ردود الأفعال والأسئلة التي تجول بالخواطر أو الاعتراضات، ويدركها بفطنته وفِراسته، ويراعي ذلك في

كلامه ونظراته وإجابته على السّائل قبل أن يُسأل إن كان تعجيلُه أولى، أو العدول عن كلامٍ أراد أن يقوله، وكلّ ذلك يعرفه اللّبيب بحال السّامع وانقباضه وانبساطه، وتهيئته للسُّؤال أو الاعتراض واندهاشه، وقد يكون ذلك بسبب معرفة المتحدث بحال السّامع من قبل ومذهبه ورأيه المخالف وحبّه للمخالفة أو الجدل.

ضعفُ النفس

من دلائل ضعف النُّفوس لدى النّاس أنّهم يخافون من العقاب العاجل، ولو قلّ = أكثر من خوفهم من العقاب الآجل، فيخشى الواحد منّا أن يُظلم إذا ظَلَم، وأن يُصاب في نفسه أو ماله أو ولده إذا اقترف إثمًا، ويحافظ على أداء صلاة الفجر جماعةً لتحصل البركة في الرّزق.

لماذا لا تخرج ؟!

قال رجلٌ لصاحبه وهو يحاوره: لماذا لا تخرج، ويكون لك جمهورٌ وجماعةٌ؟ فقال له وهو صاحب جماهير وشهرة: أضرب لك مثلين: *

أحدهما طبيب عامّ يعالج الناس، لم يتخصص، يفد إليه من هبّ ودبّ، فيعطيهم أدوية مسكنة، فينتفع من ينتفع منهم.

والثاني: طبيب متخصص يأتي إليه من يشكو إليه عضواً من أعضائه، ولهذا الطبيب معرفة خاصّة به، تحقق له معرفة الدّاء والدّواء، فهذا من يأتي إليه قليلٌ، ودواؤه أنفع وأثبت، والآتون إلى الأول كثير، ومعرفته ومنفعة دوائه قليلة، والأول مثلك، والثاني مثلي.

ثمّ إنّ الخروج ليكون لي جماعة وجمهور غاية سوء ومقصد شرّ، أعوذ منها وأعيذك، فهذه دعوة إلى نفسي وحظّي وليست دعوة إلى الله سبحانه.

وفي الواعظين من يصحّ تشبيه حاله بإنسان حصل له حـادث؛ فـاجتمع الناس حوله ينظرون، فلما قضوا ذهبوا، ولم يعلق بأذهانهم إلاّ الإثارة.

ضياع الفطنة

من النّاس من لا يفطن إلى أدب التضيّف .. يـأتي إليـك للقـاء ضـيفٍ عندك، ولـه مصـلحةٌ عنـد ضـيفك، فيجعـل وجهتـه في نفسـه وخطابـه ومجاذبته للحديث لغير صاحب المنزل، ويعبّر في أسلوبه أنّه لـولا ذلـك الضيف ما زارك، ولا دخل دارك، وربما عبس وقطّب .. فيفتضـح حينئـذٍ بإرادة المصلحة وحدها. والدّين والكياسة يقولان له غير ذلك، والناس لا يفوتهم مثل هذا، ويدركون طرق هذا الصنف من الناس.

اللّغة بنت المحاكاة

اللّغة لا تكون اختراعًا، وإنّما هي محاكـاة وتقليـد، وقـد يطـرأ عليهـا تطويرٌ واتّساع وتحريف .. ولن يستطيع المصاب بعلّة الصّمم أن يتكلّم أبدًا لأنّه لم يسمع من كلام النّاس شيئًا يحاكيه. ولـيس للوراثـة فيهـا مـدخلٌ، فالوليـد العـربي إذا نشـأ بـين العجـم حاكـاهم، وتكلّـم بمـا يتكلّمـون، والعكس. ولو وُضع بين طيور لا يعرف غيرها من ذوات الأصوات لصاح وغرّد، ولما كان لملكة الكلام سبيلٌ إليه، ولو وُضع بـين الأسـود لـزأر، وبين القطط والكلاب لكان لـه مُـواء ونبـاح. وإنّمـا الوراثـة في الفصـاحة والبلاغة وملكة الإنشاء والاستحضار. ولم تكن اللّغة في ابتداء الخلـق إلاّ إلهامًا من الحقّ سبحانه وتعالى، ولأهل العلم في ابتـداء اللّغـات مباحـث وخلافٌ طويل.

فقه الواقع

يصـغر الكبـار حـين يتـدخلون في شـؤون الصّـغار حـين يختلفـون،

ويُصعّدون الخلاف بينهم وبين أوليائهم، وربما حدث بين الأولياء مشكلات عسرة، والأطفال لم يلبثوا إلاّ ساعة وإذا بهم يعودون لما كانوا عليه من اللّهو .. يتضاحكون ويسرحون ويمرحون، والأولياء يتعاركون، ويتهارشون تهارش الحُمُر.

والتّصرّف الحكيم في مثل هذا أن يعلّم الصغار كيف يكون التعامل بينهم وخطأ الأشياء وصوابها، وإذا احتيج إلى تنبيه الكبار ونصحهم برفقٍ فعلوا .. والواقع يشهد لمثل هذا التصرف بالسلامة، وللأول بالملامة.

من عجائب الحفظ

من عجائب الحفظ أن الإنسان حين مراجعته لما يحفظ، وترداده له ينطلق لسانه في بعض المواضع، ويجري فيها جري الماء، ويتعثر في مواضع قبلها وبعدها، ولا تزال عسرة عليه، ومردّ ذلك لأحد أمور:

إمّا أن يكون ذلك المحفوظ الذي يقوله من طرف لسانه، ولا يجد عنتًا في تذكره، لتردادٍ صادف في وقت الحفظ قلبًا حاضرًا، وذهنًا يقظًا، والأصل في الذهن أن يلتقط ما يَرِدُ إليه، ويخزنه في الذاكرة، ولكنه يصعب في كثير من الأحيان أن لا يشتغل بشيءٍ سوى المحفوظ؛ لأنّ الحواس والتّفكير ودواعي النّفس والوسواس تشغله، ولهذا كان الأعمى أقوى حفظًا من غيره من المبصرين.

وإمّا أن يكون الوقت الذي فيه حفظ ذلك المقطع من النّظم أو النّثر صادف رغبة قوية ونشاطًا وهمّة وخلوّ بالٍ وراحة نفس، وللرّغبة أثر في سرعة الحفظ وثبات المحفوظ، ولهذا يحفظ الإنسان في أول يومٍ ما لا يحفظه بعد، ويثبت ثباتًا لا يثبته غيره.

وإمّا أن يكون المعالج للحفظ حين الحفظ أولاه عنايةً وتكرارًا خاصًّا.

وقد حفظتُ متونًا كثيرة منظومة ومنثورة، وحفظ المحفوظ وتعاهده شاقٌّ على من لا يقف اطّلاعه ومعرفته على علوم محصورة، وعلى من يشتغل بالكتابة والتّحليل والتّأليف، وربّما كان ذلك أشقّ عليه من حفظه ابتداءً، فأراني أهربُ من مراجعة ما حفظته لأسباب، منها:

كثرة ما حفظته، فقد حفظتُ ألفياتٍ ومنظومات مئينيّة، ومتونًا نثريّة، منها تلخيص المفتاح عن ظهر قلب.

ومنها: أنّ الهمّة التي كانت متوثبة عند الحفظ ليست موجودة الآن بتمامها، فإني إذا وجدتُ نفسي أقف أو أتعثر أهربُ مِن وصم همّتي بالضّعف أو ذهني بالكلل، فأتركُ المراجعة.

ومنها: أني بعد النّضج وسعة الاطّلاع صار الأمتع إلى نفسي القراءة والاشتغال بإمتاع الذّهن بالتّحليل والاستنباط وفضّ أبكار المعاني، وفي ذلك مُتعة لا أجدها في الحفظ.

التِّجارةُ الرَّابحةُ

أيُّ عقل يجد بعد كلام الله هذا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ۝٣٠﴾ [فاطر: ٣٠] موضعًا للإقتار والبخل؟ وهل يبقى له في الدّنيا أملٌ يجنحُ به إلى متاع الدّنيا وزخرفها ولهوها ولعبها وزينتها وتفاخرها وتكاثرها.

إنّنا نقول لمن أراد التّجارة مع الله تعالى: إنها تجارة رابحة لا خسارة فيها، وإن شهر رمضان يطرح أسهمه بثمن قليل، وعمل يسير، بتلاوة أجلّ كلامٍ وأحلاه، وهو كلام الله؛ لتأخذوا من الأرباح ما لا تحتسبون، وما لا تقدرون، إنها مساهمة لا خسارة فيها ولا غبن، ولا غرر ولا ضرر،

فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم.

عجبتُ من جسم ومن صحة ومن فتى نام إلى الفجرِ
والموت لا يُؤمَن من خَطفَةٍ في ظُلَم الليل إذا يسرِ

حب الذّات مع الخشية . . !!

رأيتُ من القرّاء أصحاب الأصوات الشجيّة من هو كثير البكاء في الصلاة، ومن الوعاظ من هو كذلك أيضًا .. وتأمّلتُ أحوالهم فلم أرها تناسب رقّتهم في ذلك المقام، في ورعهم أو عبادتهم، أو نفعهم للخلقِ، وكثير من عملهم.

ورأيتُ غيرهم من قليل الزفرات بين الناس من هو خيرٌ منهم في الدّين والمعاملة .. فعلمتُ أنها خشية يساعدها طبعٌ يسهل به البكاء مع قوّة في التّصور .. واختلاف الحال بسبب نقص في الدّين أو العلم، أو العقل، وزيادة في حبّ الدّنيا، وقد تتصارع هذه الأمور الأربعة فيزيد بعضها تارة وينقص تارة، فتختلف بحسب مساعدة القلب والنفس؛ لأيٍّ منها، وأهل الثبات تتوازن لديهم الأحوال لتوازن استعدادهم.

كل تأخيرة

في الأشياء ما تحسن العجلة فيه، وإليه، أو تجب، وفيها ما لا يحسن بل يذمّ .. والعامّة يقولون: كل تأخيرة فيها خيرة. وليس هذا بصحيح على عمومه، والصّواب بعض التّأخير فيه خيرٌ.

غير أنّ لفظ «خيرة» معناه اختيار ومشيئة، فإن كان هو المراد وقصد اختيار الله ومشيئته؛ فالمعنى مقبولٌ، ويبقى السؤال عن فائدة هذا المقال، فإنّ التّأخير والتّعجيل وكلّ شيءٍ تحت مشيئة الله .. وإذا كان الأمر المؤخّر

شرًّا، هل يقال: اختاره الله أم يقال: أراده؟

فإن كان الاختيار كالإرادة جاز، وإن كان كالرِّضى لم يصحَّ.

ألم يعلم بأن الله يرى ؟

كنتُ يومًا بالمدينة نزيلاً بدارٍ مطلّة على سوقٍ وأنا أنظر من شُرفة الحُجرة إلى الشّارع فمرّ به فتاة سوداء منقبة، وتجاوزت الشّارع إلى محلّ لبيع الأقمشة، فلحظها شابٌّ يشبه أن يكون في سنّها ولونها، وتلاقت العيون بنظرة فجرّت في عروقه دواعي الهوى .. فحوّل وِجهته إليها، فلو رأيتَه كيف كان فعله حينذاك وهو يذهب ويجي، ويستجيش ويلتجي، وهو طائشٌ حائرٌ، يلتفت التفاتة الخائف الحييّ المكلوم العابث .. والنّاس متقاربون في التّصرف في مثل هذه الحال إذا تراشقوا بسهام إبليس، أمام من يراهم من الخلق .. حيرة .. وارتباك .. واضطراب .. ووجه يحمارّ ويصفارّ .. وتلعثم .. ولو أدرك ذلك الشابّ أني كنتُ أراه من فوقه رؤية المتمكن العارف بكل حركاته لاستحيا ممّا هو فيه، وكفّ بصره ويده ورجله، وانكسرت حدّته .. فقلتُ في نفسي: كيف لو علم حينها أنّ الله مطّلعٌ عليه يرقبه وهو شديد العقاب، يحصي حركاته وسكناته، ويعلم ما في نفسه، وما يضمره ويظهره؟ ولكن الإنسان يطغى ويغفل، والله لا يغفل. لو علم ذلك حقيقة لولّى مدبرًا، ولم يعقب، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق].

العقلاء الثّقلاء

يكون العاقل ثقيلاً حينما يتعاقل، فيضيف إلى ثقل العقل ثقل التّعاقل، ولا يحمد التّعاقل في مجالس الأنس، وبين خواصّ الأصحاب، وفي الجلساء من يضحك النّاس حوله وهو عابسٌ، وينطقون وهو صامتٌ مطبق

الشّفتين، لا يرى عليه أثر البِشر، وكأنّه لا يعرف أحداً. يعجب من ضحك النّاس حين يضحكون؛ ليعجبوا من عقله وسمته ورزانة عقله؛ لأنّه الوحيد الذي لم تستخفه طُرفة، ولا غلب هيبته هزْلٌ.

وبعض هؤلاء يؤخّر تأثيره بما سمع لوقت آخر فيضحك وحده، ولو بعد يوم أو يومين، وسبب التّعاقل العجب، أو مدح النّاس له بالعقل أو ضعف الثّقة بالنّفس، أو أمر آخر.

وأثقل العقلاء من استعمل ذلك مع جليسه وحدهما، وأخفّ من ذلك إذا كانوا ثلاثة، فأربعة وهكذا. فإذا كان أحد الزّوجين بهذا الوصف فبشّر الآخرَ بخراب بيته، ولو بعد حين.

قيمة الشّيء

قيمة الشّيء حينما تحتاج إليه .. يقع في يدك الكتاب فتقرأ عنوانه وتقلّب أوراقه فلا ترى فيه ما يجذبك إليه، ويدعوك للاعتناء به، وتمضي الأيّام فتحتاج إليه، ويكون وقتها أهمّ كتابٍ لديك، وربّما حملك استعجال المنفعة على شرائه، وأنت تعلم أنه عندك هروبًا من عناء البحث عنه. وهذه القيمة للأشياء تنسحب على كلّ شيءٍ؛ على الأصحاب والإخوان والآلات والأدوات ولو صَغُرت حتى مقراض الأظفار، وهو يصلح أن يكون أنموذجًا للزّهد فيه مع الحاجة إليه عند طلبه.

فالحازم لا يفرّط في شيءٍ يقدِّر أنّه ممّا يمكن الاحتياج إليه يومًا من الدّهر.

البَساطةُ

قرأتُ لبعض فلاسفة الغرب حكمة حسناء، وهي: «أغنى الأغنياء: من يجد متعته في أبسط الأشياء». وهي مقالة صدق؛ لأنّ مردّ ذلك إلى

النّفس، والغنى غنى النّفس، والشّقيّ يفسد على نفسه أنفس ما يستمتع به، ويحيله إلى تنغيص وإفساد للمزاج، وهمّ وشقاء، ويبحث عن السّعادة فلا يجدها، فقد استوفى أسباب التّرفه كلّها، ولم تعد نفسه تطمح إلى أحسن من ذلك، فإن لم يكن مؤمنًا لم يبق له أملٌ في شيءٍ آخر أعلى من ذلك، فلا يزداد إلاّ تراكمًا للأحزان والهموم.

وقد وُجد الانتحار في بلاد السّويد أكثر من غيرها، وأفرادها أكثر النّاس دخلاً ماديًّا .. فعرف من كان يظن - بادي الرّأي - أنّ السّعادة في إسعاد الجسد.

وممّا تلقيناه من أشياخنا: «إذا ترفّه الجسم تعقدت الرّوح»، ولهذه الجملة شرح طويلٌ في موضع آخر، وما أحسن قول بعض أعلام القناعة والرّضى:

الجوعُ يطردُ بالرَّغيف اليابسِ   فعلامَ تكثرُ حسرتي ووساوسي

عبَثُ الألسُن

رأيتُ بعض المتزهّدة إذا سبّح واستغفر يحرك فمَه تحريك المرتعش من البرد، أو: من في فمه طعامٌ حارٌّ .. يفهم خطأ أنّ هذا من لوازم الإكثار من الذّكر الذي أمر الله به، ومن ترطيب اللّسان بذكر الله، فقلتُ له: إنّ هذه طريقة لم تُعْهَد عن الأسلاف نقلاً، ولا عمّن أدركناهم من الرّاسخين فِعلاً، ولا هي ممّا يواطئ القلب فيها اللّسان برابط تجلي المعاني، وتدبّر الألفاظ أصلاً. وقد أُمِرنا أن نقرأ القرآن - وهو ذكرٌ - على مُكث، وكان استغفار النبيّ ﷺ يُحصى في المجلس الواحد، ولو كان استغفاره بهذه الطريقة لبلغ عددًا كبيرًا، ولما استطاع أن يحصيه أحدٌ، ولا فقه المتكلم ولا السّامع، وهذا أيضًا ممّا لا تؤيّده الطباع السّليمة، بل هو أدعى

للغفلة، والله يقول: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وقد نقل الألوسيّ في (تفسيره) في قول الله تعالى: ﴿وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، الإجماع على أنّ الذكر باللّسان وحده لا يكفي، وحكاه عن النّوويّ. *

الإنصاف

النّاس هم النّاس في حكمهم على أبناء عصرهم، لا يتّفق أن يكون رأيهم منصفًا في علمائهم ونبلائهم وأدبائهم، تتوجّه فيهم ملكة النّقد، وتقوى لديهم دواعي التنقّص والذمّ، فلا يبرعُ أحدٌ في شيءٍ يتميّز به عن أقرانه، أو ينادي فيهم بترك ما كان عليه جمهور النّاس من الباطل، أو يأتيهم بجديد يبهتهم به، فلا يستطيعون ردّه إلاّ قاموا عليه، ونبذوا كلامَه، وسفّهوا أحلامَه، وجاشت في أنفسهم غلواء الحسد، زيّن لهم الشّيطان أعمالهم، فتقرّبوا إلى الله بإيذائه، وكادا له، وأبدوا العدواةَ والبغضاء .. حتى إذا قضى ومات، كسر موته حنقهم، وخبَتْ حدّتهم، فإذا ما ذهب جيلهم، وجاء جيلٌ آخرُ صيّروا ذلك العالم والأديب العلَم الأوحد، ووصفوه بما هو به حقيقٌ، وأنصفوه من كلّ طريق، بل ربّما خلعوا عليه من الصّفات ما لم يتّصف به، وبالغوا فيه، وغلوا غلوًّا كبيرًا.

انظر إن شئتَ إلى معاصري أبي حنيفة في أبي حنيفة، وانظر ما قالوه وما فعلوه بابن حزم، وماذا صنعوا بالسرخسي، وكذلك ابن تيمية، ومحمد بن عبد الوهاب، وغيرهم كثير.

ولستُ أقولُ: إنّ هؤلاء لم ينصفهم بعضٌ من معاصريهم، ولكني أقول: إنّ الإنصافَ عزيزٌ.

العادة بنت الطبيعة أو بنت التكرار

الباعث على العادة التي يعتادها المرء شعورٌ محرّك ناتجٌ عن معرفة بما يعمله، ولا يكون ما يعمله الإنسان عادةً حتى يكرره، فإذا كرّره صار عادة له، وصارت العادة طبيعة وسَجيّة من سجاياه، وتتمكن منه حتى تكون كطعامه وشرابه، وإذا صار الشّيء طبيعة سَهُل أمره على صاحبه ولو كان ثقيلاً في ذاته، وانظر إلى أحوال النّاس تجدها متباينة في الجدّ والعمل والتّحصيل والإنجاز والسّعي والنّجاح، وفي كلّ شيء تجد ذلك بيّنًا، ويقال: عن الشّيء إذا كُرِّر لا يكون عادةً إلا إذا عمله الإنسان أكثر من عشرين مرّة.

ويبدو لي أنّ الأمر يختلف باختلاف النّاس، فمنهم من يألف الشّيء ويتعشقه لحصوله منه مرّتين أو ثلاثًا، والحكم فيه كالحكم على الحبّ الذي يكون من النّظرات الأولى لدى بعضهم، ولا يكون لدى آخرين إلاّ بعد نظرات ولقاءات ومخالطة، ومنهم من لا ينفذ إلى قلبه شيءٌ من دواعيه.

فإذا كان الخلق يتفاوتون في هذا فهم فيما يعتادونه متفاوتون. ولكن الأمر الذي يُوصى به هنا هو: التنبيه على أن يكون هدفك من كلّ ما تتخذه في حياتك واضحًا في معناه، وواضحًا في ذاته، كأنك ترى ثمرته أمام عينيك.

الإصغاء بالقوة !!

يُبتلى المرءُ أحيانًا بمَن لا يملُّ حديث نفسه، فيظل يتحف جليسه بأخباره وأخبار أبنائه الصّغار وعجائبهم، وينفذ من قصّة إلى قصّة، ومن خبر إلى خبر، يسرد ذلك سردًا، ولا تسل عن براعته في التّخلّص وإيجاد

المناسبة بين أخباره وقصصه، ولا تسل أيضًا عن مهارته في صرف حديثك الذي تدخله في أثناء كلامه لتصرفه عن إسهابه وثرثرته، كيف يُسخِّر كلامك لسوق حديث آخر يقفل به عليك الباب، حتى تعزم على أن لا تعود إلى ما أنت عليه من إدراج ألفاظ في ثنايا كلامه، وتتوب من ذلك توبة نصوحًا.

وأنت مخيّر حينئذٍ بين الإنصات إلى حديثه والاشتغال بفهمه وتدبّره، وبين مجرد الإنصات، وترك الذّهن يشتغل بما يشاء، فإنّ من أصعب الأشياء حبس الذّهن وقهره على ما لا يريد ويرغب، وبقي عليك ههنا إعمال الكيس في إفهامه بأنك معه، ولا يكون ذلك إلا بإبداء علامات وإشارات ومشاركة تدلّ على أنك متابعٌ حديثَه معجبٌ به، وقد طرحتُ هذا الأمرِ على طائفة من الرّفاق: كيف يصنعون؟ وبأي وسيلة يتخلصون؟ فكان لكلٍّ جواب.

مناسَبة المقام

السّائل في العلم حاله كحال العليل الذي يستوصف دواءً ليُشفى، قد يكون له دواءٌ يوصف له ولغيره؛ لأنّ الحال واحدة، واختلاف الذّوات لا يؤثر، وفي أحيان كثيرة لا يصلح له ما يصلح لغيره.

فإذا قال طالب العلم: أيّ العلوم أنفعُ لي؟ قيل له: الأنفع لك ما تراك ميسّرًا لما خلقتَ له، تعرف ذلك من نفسك، وتوجّه إرادتك وجموح رغبتك، ومن الظّلم أن يوضع الشّيء في غير موضعه، وكلّ علم قائم على حقائق، وله نفعٌ، ونفسك تطمح إليه؛ فهو مجال إبداعك.

ألا ترى أنّ العسل ينفع في بعض الأحوال أكثر من نفعه في أحوال أخرى، وينتفع به أناسٌ في بعض الأدواء ما لا ينتفع به آخرون ؟

وأسأل كثيرًا في التفسير الأنفع لطالب العلم، فأعطي هذا جوابًا، ولآخر جوابًا آخر، فمن كان من أهل الحديث وتتوجّه رغبته إليه وجّهتُه إلى تفسير ابن كثير، ومن كان من أهل الفقه وفُتح له في ذلك بابٌ واسع أرشدتُه إلى تفسير القرطبي ونحوه، ومن كان من أهل النّحو دللتُه على كتاب (البحر المحيط) لأبي حيان، ومن كان من أهل اللّسان؛ قلتُ له: عليك بتفسير (التحرير والتنوير) للطاهر ابن عاشور، ومن كان أطمعَ وأطمحَ أشرتُ عليه بهذه كلّها وبتفسير الرّازي والآلوسي والماوردي، وأوصيتُه أن لا يقنع بتفسير.

وهكذا، فعليك أن تعرف ذاتك لتفتيها أنت، وفي الناس من لا يعرف ذاته ولا رغباته، بسبب الغفلة، وضعف الإحساس.

خطبة الجمعة

الأولى في خطبة الجمعة أن تكون مرتجلة بعد إعداد عناصرها في النّفس، وأهمُّ عناصرها: الافتتاح بعد الحمد والتّسليم، واستحضار النّصوص من الكتاب والسّنة وأقوال أهل العلم .. والتّفكير لا سيما قُبيل الخطبة، وقراءة الخطبة في ورقة مرجوحٌ لأمور، منها:

أنّ قراءتها مخالفٌ لهدي السّلف الصّالح، وإلقاؤها غير مقروءة موافق لفعل النّبيّ الأمّي ﷺ، وموافقته - ولو كان أميًا - أفضل من مخالفته.

ومنها: أنّ الخطيب حين يكون منشغلاً بأوراقه يكون بمعزلٍ عن المصلين، والواقع شاهدٌ على ذلك، فإنّ منهم من ينام أثناء قراءة الخطيب لأنّه يعلم أن خطبة الخطيب دبِّرت بليل، وأنه قد نسخها في الغالب من كتاب، فيحصل لديهم شعورٌ بانفكاك الجهة بين مشاعر الخطيب، وما ترمي إليه الخطبة.

ومنها: أنّه لا يرقب انفعالهم ولا تلحظ عينه تصرفاتهم المخالفة، وقد يحدث منكر أمامه ولا ينبّه عليه؛ لأنّ العادة التي سار عليها لا تصرفه إلى ذلك .. وقد رأى عمرُ بنُ الخطاب عثمانَ بنَ عفّان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا دخل المسجدَ متأخِّرًا، وعمر يخطب فتكلّم في ذلك، وخاطب كلّ منهما الآخر، وقبل ذلك فعل النّبيِّ صلّى الله عليه وسلم في خطابه وهو على منبره غير مرَّة.

ومنها: انفعال المرتجل أقوى وأكبر تأثيرًا وعاطفته تنطلق بلا تقييد.

ومنها: أنّ المرتجل يفتح له في ذلك المقام المبارك فوائد ولطائف، وترد عليه خواطر نافعة.

ومنها: أنّ النّاس يثقون بالمرتجل ما لا يثقون بغيره، ويأملون منه ما لا يؤمّلون من غيره.

حكمة الحكيم العليم

حين فارق النبيّ ﷺ هذه الدّنيا، وجُمِعَ القرآنُ من بعده = كان النّاس يقرءون في مكة بقراءة ابن كثير، وفي المدينة بقراءة نافع، وهما عاصمتا الإسلام، وكان يُقرأ في دمشق عاصمة الخلافة الأموية بقراءة ابن عامر، وفي البصرة كان النّاس يقرءون بقراءة أبي عَمرو، وأمّا الكوفة فقد كان عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ، هم قُرَّاءها، ولكلٍ منهم رواة، وحُفِظَت تلك القراءاتُ في الصّدور وفي السّطور، ولكن المولى سبحانه الفعّال لما يريد المدبِّر ما يشاء كيف يشاء أراد أن تكون القراءة المشهورة التي تطبق الآفاق، وتضوع في الدّنيا من بعد ذلك هي القراءة التي رواها حفصٌ عن عاصم الكوفيّ، وهي التي تعلّمها الصّغار والكبار، وكُتبت بها المصاحف في عامّة الأمصار، هذا مع أنّ حفصًا راوي عاصم قد طُعِن فيه أشدّ طعن، وذُكِر فيه أسوأ مقالة في الجَرح، فقيل عنه: متروكٌ، وكذّابٌ، ووضّاعٌ.

وقال عنه أحمدُ حين سئل عنه: «قد فُرِغَ منه منذ دهرٍ، وشعبة أحسنُ منه».
وقلتُ في نظم الضّعفاء الذين جمعهم البخاريُّ في كتابه (الضعفاء الصغير):

حفصٌ أخو القرّاء متهمٌ وفي الـ إقـراء بالإجماع ذو إتقـانِ
وأشدّ طعنٍ فيه متروكٌ وكـذ ابٌ ووضّـاعٌ وذو بُهتـانِ

فلو كان البقاء للأكثر والأقوى والأعزّ لما بقيت هذه القراءة على هذا النّحو، وصارت الأولى في العالم، فإنّه لا يُقرأ اليوم إلاّ بروايته، وفي بعض بلادِ إفريقيا بقراءة نافع وبرواية الدُّوري عن أبي عَمرو البصري، قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، ورحمة الله على حفص، وما أظنّه إلاّ أنه كان يتساهل في الرّواية، ويتأوّل في ترغيب النّاس وترهيبهم، وما ندري، فلعلّ قسوة الجارحين، وجور فريقٍ منهم عوّضه الذِّكر الحسن، ولسان الصِّدق.

بعض الكذب

أبغض الكذب إلى النّاس ما تعلّق بمصالحهم بتفويتٍ أو تأجيلٍ أو نقصان، وأمّا كذبٌ تكذبه عن نفسك أو عن غيرك ممّا لا يعني مَن تخاطبه، أو كذبٌ لا مفسدةَ فيه عليهم؛ فبابٌ من أبواب التَّفكُّه والإمتاع، وسببٌ من أسباب الارتياح عند عامّة الناس.

ابن حزم

لامني أناسٌ - فيهم من يعدّ من أهل العلم - على قراءتي لكتب أبي محمد ابن حزم الظاهريّ؛ لأنها فيما زعموا تجنح بالمرء إلى الشّذوذ وترك المبالاة بكلام الأئمة والتّطاول، والتّزبّب قبل الحَصرمة، وأنا أعُدّ تعلّقي

بأبي محمّد وكتبه من أكبر نعم الله عليّ التي لا أستطيعُ الوفاءَ بشكرها، فقد انتفعتُ بتصانيفه أكبر من انتفاعي من سائر كتب النّاس، ولو وُزن انتفاعي بكتبه ومنهجه وأسلوبه وبيانه، وكان ذلك في كفّة ودراستي النظاميّة من أولها إلى آخرها في كفّة = لرجحتْ كفّة أبي محمّد، ولو أُثقلتْ الأخرى بزُبَر الحديد.

أقول هذا دون مبالغة ولا تزيّد، فمنه تعلمتُ الأدبَ والفقهَ والأصولَ والحديثَ والمذاهبَ والاختلافَ والجدلَ وتربية النّفس. وأمّا قولهم: إنّ كتبه تعلّم الشذوذ والتّطاولَ؛ فليس بصحيحٍ، وفيه كلامٌ مجملٌ، فإنها تُعَلِّمُ ما ذكرتُ سلفًا، وتصقل الذّهن، وتصفي المنهجَ، وتردّ صاحبها إلى الفطرة، وكلّ الكبار الذين تخرّجوا في مدرسته انتفعوا به، كابن تيمية وابن القيم وابن الوزير والصّنعاني والشّوكاني، وكلّ من له نزعةٌ حديثية، ولم يتقلّد بحبال التّقليد، كلّهم انتفعوا بمؤلفاته وتصانيفه، ومن المعاصرين ناصر الدّين الألباني، ومقبل بن هادي الوادعي، وهؤلاء لم يصرّحوا بالانتساب إليه، ولا إلى منهجه.

نِعَمُ الإلهِ

كنّا نشكو من قلّة المصاحف وخَطِّها، ويبحث الإنسان في البيت عن مصحفٍ فلا يجدُ مصحفًا كاملاً حَسن الخطّ إلاّ قليلاً، وإذا ظفر بمصحفٍ خبّأَهُ حتى لا تناله الأيدي خشية ألا يظفر ببديلٍ مثله. وكان أبو معاذ الرّازيّ يقول متمنيًا: أشتهي مصحفًا جيّد الخطّ، وبيتًا خاليًا.

وأمّا اليوم؛ فالمصاحف كثيرة، وفي كلّ بيت مصاحف بطبعات مختلفة، وبأحسن الطبعات، والمساجد مملوءة، والقرآن مسموع ومسجّل بأصوات مختلفة، وهو مسموعٌ ومطبوعٌ في الجوّال، ولكن أين القارئون؟ فإن وُجِد القارئون فأين التّالون المرتّلون؟ ثم أين المتدبرون؟ ثم أين

المذكّرون الذين هم أولو الألباب، الذين يتلونه حقّ تلاوته، ويقرءونه آناء اللّيل وأطراف النهار على الوجه المرضي ؟!!

مسرَّةُ النّجاح (تحليلٌ بين اللّغة والنّفس)

الفرح والجَذل والحُبور والمَسرّة والبهجة كلماتٌ قريبة المعنى، وأقرب لفظٍ دالّ على ما يضادّ الفرح هو التّرح، وظهور المسرّة في الأصل والعادة أكثر من ظهور الحزن لدى أهل الكيس والعزم واليقين، ويُروى عن عليّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**حزنُ المؤمن في قلبه، وبشره في وجهه**». ووضعت العربُ للفرح حرفًا محلّ النطق به ظاهرٌ، وهو الفاء الذي يخرجُ من الشّفة، ووضعت للتّرح التّاء التي[1] تخرج من داخل الفم، والرّاء حرفٌ سَخيٌّ منعشٌ يجنحُ بالكلمة إلى معنًى زائد، كالتّكثير والسّعة، أو تقريب المعنى، وليس في الكلمات العربية حرفٌ له نصيبٌ من المشاركة مثله، وله في المعاجم محلّ واسعٌ. هذا وهم يُراعون أوّل الكلمة أو آخرها، ولعل الكلمات الخالية منه تقاربُ الكلمات الممزوجة به.

وأمّا الحاءُ؛ فغالب ما يكون في المعاني الظّاهرة، أو ما يعقبه معنى يظهر، وفيما يدلّ على البسط والاتّساع.

وجاء الفرح في القرآن في مواضع كثيرة، ليس منها ما هو في سياق المدح في شيءٍ من خالص أمر الدّنيا، فكأن الفرح شدة المسرّة التي قد تذهب بصاحبها إلى مكان بعيد ينسيه شكر المنعم.

والفرح بالنّجاح: سرورٌ يتذكّر به المرء أسبابه من عمل واجتهاد وغير ذلك، وباعثه أشياء:

منها: اندفاع ما كان يختلج بصدره من ظنون الخيبة والإخفاق، ولا بدّ

---

(١) حروف المعجم تذكّر وتؤنث.

أن يعرض مثل ذلك في الموقف الأخير عند لحظة انتظار الفوز، ولو كـان المرء موقنًا قبل ذلك بالنّجاح فإنّه يرد عليه من الاحتمـالات وسـوء الظـنّ ما لا يكاد يخطر في غيره، وكذلك القاعد عن العمـل يغشـاه مـن الأمـل وقتها ما يغشاه، وما هي إلاّ خيوط دقيقة في دائرة الإمكان الواسعة.

ومنها: تفريح أهله وهو ينقلب إليهم مبتهجًا يحمل معه علائم المسرّة، والانقلابُ: رجوعٌ بإسراعٍ يُشعر بأنّ فاعلاً حملَه على المطاوعـة، تقـول: قلبته فانقلب، وهذا الفاعـل حالـه، وهـو السّـرور وباعثـه، قـال تعـالى: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾ [الانشقاق: ٩] يصوّر القرآنُ أحوال الآخرة بمـا نعرفـه في الدّنيا ونزاوله، وليس لنا في الدّنيا ممّا في الآخـرة إلا الأسمـاء، كمـا جاء عن ابـن عبـاس. وقـال تعـالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٣١]، ومادّة (فكه) تعبّر عن معناها بنفسها.

ومنها: محبّة الثّناء، وهو أصـلٌ في النّـاس كلّهـم، العامـل والقاعـد، والمبرِّز والمقصر، والذّكيّ والغبيّ، والنّاس فيه طرفان ووسط.

صنفٌ يَطرب للمدح، ويعجب به، ويَظهر فيه الزّهو والعجب ولو كان في المديح ما لا يصدقُ عليه، وهذا مذموم.

وصنفٌ آخرُ يُظهر امتعاضه وغضبه، وذمَّ كلِّ مادحٍ في كلّ مقـام، وفي هذا الصنّف فريقٌ يريد أن يُمدحَ بأنّه لا يحب المدحَ ليكبر في صدورهم.

وصنفٌ آخر - وهو الوسط - يكـافئ علـى حسـن الظـنّ، ولا يرضـى بكاذب المديح، ويجعل ما صدق من ذلك عاجـل بُشـراه، وقـد يوجـب المقام شيئًا آخر، ومن القواعد ما له شذوذٌ، والشاعر يقول:

يهـوى الثنـاءَ مـبرِّزٌ ومقصِّـرٌ　　حـبُّ الثنـاءِ غريـزةُ الإنسـانِ

وأمّا محبّة الذّمّ في حضرة النّـاس لكسـر الـنفس وتربيتـها علـى إدراك

محلّها وضعتها؛ فهو مذهب خسّة وضعف، وقلّة عقل تأباه الفطر السّليمة، وليس بمَرضيّ في الشّرع.

فرّح الله النّاجحين فرحًا يرضيه، وأقرّ أعينَ أهليهم قرارًا يرضيهم.

جمعُ الكتُب

يسألك الذين لا يدركون قيمة الكُتب وقدرها عندك ومكانتها في نفسك: ماذا تريد بهذه الكتب كلّها ؟

سؤال تعجّب، يظنّون غير الحقّ أنك تجمعها هوايةً كما يجمع هواة الطّوابع طوابع البريد، وقال لي أحد العامّة: ماذا تريد بهذه المصاحف؟ يظنّ جميع المجلّدات مصاحف، واقترح عليّ أن أجعلها في المساجد لينتفع بها الناس، ولبعض الشُّعراء:

أتانا أنّ سهلاً ذمّ جهلاً علومًا ليس يدركُهُنّ سهلُ
علومًا لو دراها ما قلاها ولكنّ الرضا بالجهل سَهلُ

مقاصدُ التّسمية

تعلُّق الناس بالرّبوبية أمر فِطريّ يجدونه في أنفسهم، فمصالحهم بل حياتهم قائمة على عطاء المالك المتصرف الخالق البارئ، وينطبع ذلك في كثير من أقوالهم وأحوالهم كتسميتهم لأولادهم، كالتسمية بعبدالرزاق، وعبدالمعطي، وعبدالوهّاب، وكتسميتهم بمرزوق، وعَوض، وخلف، وعناية الله، ومحفوظ، ومُسلَّم، ومُعمَّر، ومُبارك، وهبة الله، وهدية الله، وعطية الله. ويقل التّسمية المُنبئةُ عن التّعلق بالإلهية إلا المعبّدة، كعبد الله، وعبد الواحد. فلا تجد مثلاً اسم موحِّد، أو مخلص الدّين، ويكثر ذلك في بعض المسلمين من غير العرب، كذبيح الله ومتوكِّل، ونذير (بمعنى منذور).

التجاورُ اليوم

المجاورة في هذه الأزمان ليست كما كانت في الزّمان السّابق، الذي كانت المجاورة تكشف أخلاق المتجاورين وطبائعَهم وصدقَهم وأمانتَهم؛ لكثرة التّلاقي والخُلطَة واطّلاع كلّ على كلّ، ولا يكاد يخفى إلاّ ما يستر من الخصائص.

أمّا اليوم فالمتجاوران اللّذان لا يفصل بينهما إلاّ جدار لا يتراءيان إلّا قليلاً، وإن تراءيا لم يلتقيا، وإن التقيا لم يتعارفا، وإن تعارفا لم يتعاملا ولم يتعاونا، وقد يموت أحدهما والآخَر آخِر من يدري، هذا هو الكثير الشّائع، وغيره قليل.

فإذا قال أحد النّاس: أزكّي فلانًا، وأشهد له بالخير والتّقوى والصّدق؛ لأني جاورته لم يقبل منه ذلك؛ لأنّ معرفته به كمعرفة سائر النّاس، وقد يزيد عنه أنه لم ينله منه أذى، وهذه هي الغنيمة من تجاور النّاس اليوم، وهي كفّ الأذى، وأما الإحسان فقليل، ولذلك أسباب كثيرة معروفة.

من ينتفع بالصّوم؟

الذي ينتفع بالصّوم ويخرج منه مغفورًا له من صام صوما تامًّا عن شهوة البطن والفرج وعن اللّغو وقول الزّور والعمل به، ولأجله كان الصّوم جُنة، أي وقاية.

والجُنّة هي التّقوى التي ذكرت في آيات الصّوم الخمس، إحداها ختمت بها الآية الأولى، والثّانية ختمت بها الآية الخامسة.

وجه النهار

قال رجل من أهل العلم: ليتك جعلتَ كتابك الذي وضعته في التّفسير

المسمّى (وجه النّهار) على نحو أوسع وبسطتَ القولَ فيه، وجعلتَه تفسيراً شاملاً لكلّ ألفاظ القرآن، فقلتُ له: تمنّيك في محلّه وليتني فعلتُ، ولكن من الذي يضمن للمرء الفُسحة في الأجل حتّى يجتمع عنده كلٌّ ما يريد جمعه في كتابه ؟

فأرواحنا بيد الله ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، ولكن المرء يقدِّم ما عنده اليوم بقدر ما عنده من العلم وبما يرى فيه من منفعةٍ للنّاس.

ثمّ إنّ الغرض من جمع ما فيه هو بيان الغريب وذكر دقائق وحقائق من خبايا التّفسير وعيونه، أو ممّا غفل عنه المفسرون وبدا لي فيه معنى أو أشار إليه بعض العلماء في غير كتب التّفسير .. وما من عالم إلاّ وزاد أو هذب في مصنّفه أو تمنّى أن يكون بحال أحسن من الحال التي خرج عليها .. وليتنا تصفو لنا النيات، فنثاب على أعمالنا، ولا يكون ما كتبناه حجَّة علينا يزيد من ذنوبنا وأوزارنا، وقد بسطتُ (وجه النّهار) ولله الحمد والمنّة، وجعلته على نحو أوسع، والله الموفّق والمعين.

اذكر نعمة ربِّك

اجلس مع نفسك وحاوِرها، واسألها حين تحاورها هذه الأسئلة:

لا أزال على قيد الحياة، وقد فارقها كثيرٌ من الأقران، يودّ أحدهم لو يُمكّن من حياة تُمكّنه من توبة، أو عمل صالح، أو ركعتين يصليهما، أو تسبيحة، أو استغفار.

وفي خلق الله من اجتالته الشّياطين، وأضلّه الله، وختم على قلبه وسمعه، وجعل على بصره غشاوة، فمَن يهديه من بعد الله، فالحمد لله على نعمة الهداية ونعمة الإسلام.

وفي الناس من فقد عقله وتمييزه بآفة أصابته فصار واحدا من المجانين.

وفي الناس من مسه مرض أقعده وعطّل حركته فلا يستطيع أن يفعل ما يمليه عليه اختياره، ولا ما تدفعه إليه رغبته وشهوته.

وفي الناس من عزل عن العالم ووضع وراء القضبان، وفي النّاس الخائف والجائع والمصاب في أهله أو ولده أو ماله .. والعافية لا يعادلها شيء.

التّشقيق ..!!

سمعتُ واحدًا من أولي العلم الذين أوتوا سَعة في العلوم يتكلّم في مسائل في التّوحيد في (الشهادتين) فأخذ يشرح معناهما، ويفصِّل في شروطها، ثم عمد إلى تفصيل مقتضيات كلّ شهادة، ويُقَسِّم المُقسَّم ويُجَزِّئ المُجَزَّأ، بكلام كثير لا ينفع، بل يضرّ طالب العلم، لا سيما المبتدئ، ويقطع عليه الطّريق طريق العلم السّهل الميسّر.

ولهذا لا تجد في المتلقين لمثل هذا الكلام من ينتفع بهذه التّقاسيم وتلك التّفاصيل، لاسيما المبتدئ، بل تنغلق دونه أبواب الرّغبة وتضعف منه الإرادة والهمّة، كما حدّثني بذلك بعض الطلاب عن نفسه، ذلك بأنّ كلّ كلام في العلم إذا لم يلامس العقل والرّوح بما يكشف ظُلمة الجهل والشُّبهة، ويدخل الرَّوح على الرُّوح فإنه يجلب من العنت والمشقة على النّفس ما يجعلها تملّ وتفتر، وهذه المسائل والتّشقيقات في أوضح العبارات وأبين الكلمات وهما الشّهادتان من التّكلف المذموم الذي لم يكن يعرفه السّلف الطيب، فإنّ الكُفَّار المشركين كانوا يعرفون معنى لا إله إلا الله وما تقتضيه، ومعنى محمد رسول الله وما تقتضيه، والتّعبير عن هذا المقتضى يكفيه كلام موجز، وجمل يسيرة، لا بكلام كثير يستغرق

صفحات من الورق، فلا البلاغة تقرّ مثل هذا، ولا الدّيانة تطلبه، ولا سبيل العلم الصحيح يقتضيه.

انتبه .. !!

قل لِلَّذي آتاه الله علمًا أو مالاً أو جاهًا أو قوّةً أو شيئًا امتاز به عن غيره: إيّاك أن تظنّ أنّك مساوٍ لغيرك في المطلوب .. إنّك أنتَ والإنس والجنّ كافّة خُلِقْتُم للعبادة، فالعقلُ مناط التّكليف، وكلّكم مشتركون في ذلك المناط، ولكنّك تميّزت بالعلم فصرتَ مُكلّفًا بما لا يُكلّف به غيرك، ولا بدّ من صرف ذلك العلم فيما ينفع الناس، ولهذا سيسأل العباد كلّهم عن شبابهم وأعمارهم، ويسأل أهل العلم وأهل المال عن علمهم ومالهم.

وأمّا الجاهل والفقير فلا يسألان، إلاّ أن يكون السُّؤال حاصلاً لكلّ أحد بحسبه، فإن قيل بهذا فلا يخالف أحدٌ في أنّ سؤال العالم والغني أكبر من سؤال مَن هو دونهم، فما بالك بمَن اجتمع فيه العلم والمال والجاه والقوّة والفصاحة، وحسن الصّوت، وغير ذلك من النّعيم الذي هُيئ له ولم يُهيَّأ لغيره.

ردُّ الجميل

وجدتُ نفسي أهرب من ملاقاة من صنع إليَّ معروفًا لا أستطيع مكافأته بأحسن منه أو مثله، ولم أجد لذلك علّة معقولة إلا أنّ المعروف لمّا كان ثقيلاً على مَن صُنع له لا يخفف من حمله إلاّ مكافأته بمثله ثَقُل على الأنفس الكريمة أن تلقى مَن أحسن إليها عاجزة عن ردّ الجميل بالجميل، خاصّة لدى مَن يرى أن صنيعه يوجب عليك كلّ رعاية وعناية وتبجيل وإكبار، وقد يحصل منك غَفلة عن الانتباه له وإكرامه فيرى ذلك تقصيراً منك ونوع لؤم، واللّؤم على الحقيقة في هذا الباب لا يكون إلاّ ممّن تعمّد

الإساءة إلى مَن أحسن إليه، فهذا هو ضابط اللّئيم الذي أحسن أبو الطيب المتنبي في وصفه حين قال:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكتَه   وإن أنت أكرمت اللئيم تمرّدا

وممّا يُخفِّف على المرء ثقل الجميل ذِكر صانعه بالخير وذِكره بالثّناء الحسن، ووصفه بالجميل على الجميل في غَيبته، والدّعاء له، فإنّ هذا ممّا يقلل من ثقله على ظهر المرء، لأنّه يرى أنه قد وفّى بشيء ممّا يجب عليه وإن لم يبلغ صاحبه ولا اطّلع عليه.

ولم أرَ كالمعروف أمَّا مذاقه   فحلوٌ وأمّا وجهُهُ فجميلُ

البلاغة

ليس من البلاغة في شيء أن يعمد الخطيب إلى مفردات من حوشيِّ اللّغة وغريبها فيضعها بين جمل خطبته ليكسوها بثوب من الفخامة والجزالة، وإنّما البلاغة أن يخاطب النّاس بما يفهمون ويحدثهم بما يعرفون، فإن جهل عامّتهم شيئًا ممّا ذكره لم يخفَ معناه على الخاصّة، وقد قال الحسن في البلاغة - وكان من سادة البلغاء -: (البلاغة ما فهمته العامَّة ورضيته الخاصة). وقال ابن المقفع: (إيّاك والتتبّع لوحشيِّ الكلام طمعًا في نيل البلاغة، فذلك العيّ الأكبر).

وأهل البيان يجعلون مَن يخاطب الغبي بخطاب الذّكي، والصّغير بخطاب الكبير، والعالم بخطاب الجاهل، يجعلونه خارجًا عن سَنَن البلاغة غير ملتزم بقانونها، وكذلك من يُوجز في مقام الإطناب، أو يتكلّم بما يُحزن في موضع المَسَرّة، أو يُجْمِل في موضع التّفصيل، أو يقع في عكس ذلك كلّه أو غيره ممّا يجب أن يراعى فيه الحال؛ لأنّ البلاغة هي مراعاة ما يناسب المقام الدّاعي إلى الكلام.

ووجدنا في الخطباء من يكتب خطبته بأسلوبه الذي يقدر عليه، فإذا انتهى منها مضى يبحث في غريب اللّغة عن كلمات مكان كلمات كتبها طمعًا منه في تقوية خطبته لتوصف بالأصالة، ويكون لها أثرٌ كبير، ولظانٍّ أن يظن أنّه يفعل ذلك ليوثق بعلمه وتمكنه، وما هو إلاّ نوع من العي كما قال ابن المقفع في سالف كلامه، وأمّا من كان يرتجل الخطابة وجرى على لسانه بعض ألفاظ الغريب بلا تكلّف فهذا من البلاغة، ويحسن أن يردفها بما يبيّن معناها إذا خشي أن ينبني فهم الجملة على معرفة معنى تلك اللّفظة.

القُوَى الثّلاثُ

يقال: كان جالينوس الحكيم يقدِّم في الأخلاق ثلاث قوى: الرّحمة، والحياء، والسّخاء. وهذا تقديم صحيح لأنها لا تكون في امرئ إلاّ كانت قائدة له إلى الخير وثناء الغير، وهي - أي هذه الصّفات - أحبُّ الأخلاق إلى البشر، فالرّحمة للمساكين والضّعفاء والمرضى، والسّخاء للفقراء، والحياء للجميع، ولا أحد من ذوي الفطر السّليمة لا يحب الرّحمة والسّخاء والحياء .. غير أنّ الحكيم ترك خُلقًا رابعًا هو أصلٌ لصفات محمودة وتتقوّى بها هذه الأخلاق، وهو خلق الشّجاعة، فإنّ الرّحمة تضعف في مواطن الجبن وكذلك السّخاء، والحياء يزيد عن حدّه إذا فقد الشّجاعة في موطنها، وقد كان النّبيُّ ﷺ رحيمًا، حييًّا، سخيًّا، شُجاعًا.

مع احترامي .. !!

ضمّنا مجلسٌ جمع لفيفًا من الخاصّة والعامّة، واستأثر بالحديث شيخٌ ممّن جمع بين البداوة والحضارة، وكان كلامه مشوّقًا، غير أنّه غلبت عليه ملكة النّقد والتّعبير عن رأيه، فلم يدع شيئًا ذُكِر في كلام النّاس إلاّ وعلّق

عليه بالمفاضلة بينه وبين غيره، إمّا بتفضيله أو بتفضيل غيره عليه، فإن كان الكلام عن أحد من النّاس، قال: مع احترامي له: هو كذا، أو رأيي فيه كذا وكذا. أو أثنى عليه، وقارن بينه وبين نظيره وعاب عليه أشياء، وقال: مع احترامي له، وسلقه بلسان حادّ، ثم تجاوز أشخاص البشر إلى أشخاص البقاع، فجاء الكلام عن البرد في مكة والمدينة، فقال: مع احترامي لمكة.

وكذلك يفعلُ بعض الناس .. يسطو على الأشياء نقدًا وذمًّا بأحد طريقين: إمّا بالثّناء عليه أولاً ثم ذمّه، كأن يقول: فلان طيّب، ابن حلال، شهم، ولكن .. وإمّا بالتّعبير عن تقديره واحترامه أولاً، ثم مسح البلاط به بعد ذلك، وقد يجمع بين القولين خروجًا من الخلاف.

ضعف المشاعر

ضعف الحسّ والاعتبار وداء الغَفلة من الأمراض الشّائعة التي تسري في قلوب النّاس على تفاوت بينهم واختلاف، غير أنّ هناك مَواطنَ لا يكاد يفقد فيها الاعتبار والإحساس إلاّ من فتك به هذا الدّاء .. وله أسباب كثيرة، منها: كثرة الإمساس، فإنّ مغسل الموتى لا يجد في نفسه ما يجده غيره من رَهبة الموت، ولا ما كان يجده في تغسيلاته الأولى.

ورأيتُ ونحن ندفن إحدى الجنائز مَن يتضاحك ويَطيش، ويتطلع لاستقبال من حضر ومعانقته، ويخفّ إلى التّسليم إلى هذا، والضّحك إلى ذاك، ويروغ إلى مجاملة ذلك، ويرفع جوّاله الأول، ويدخل جواله الثاني، كأنّه في محفل عُرس، ومجلس أنس، يكتسب فيه الصُّدقاء والأصحاب ،وموضع تفريق الابتسامات، وطبع القبلات، وبث المجاملات، وكأنّ الموت لا يَعنيه ولا هو من أهله، إنّه لمن الغافلين، وكيف لا يكون من الغافلين، من ذهل عن أنّه سيكون قريبًا من الآفلين،

يغفُل حيثُ لا يوجد سببٌ من أسباب الغَفلة، بل في مكان ينادي فيه كلّ شيء بالاعتبار وتذكُّر الآخرة واطِّراح الدُّنيا، وتحقق المآل، وضعف الآمال .. ولكن الأمر كما قيل في الحكمة: (من لم يكن له من دينه واعظٌ لم تنفعه المواعظ).

وقال ابن دريد:

من لم يعظه الدهرُ لم ينفعه ما راحَ به الواعظُ يوماً أو غدا

وما شرع لنا زيارة القبور إلا لنعتبر ونتذكر مصيرنا ومصير كلّ حيّ، وأن هذا المكان منزل من منازل الآخرة، وأمرنا بعيادة المرضى لمواساتهم، ولنرى ضعف بني آدم ونحمد الله على العافية.

كانوا .. فصرنا

كانوا يستحيون من كثرة الأكل في الضّيافة لقلّة الطّعام وفشوّ الفقر، وتضاغي الصِّبْيَة داخل المنزل على مسمَع، واليوم يستحيي الضّيف أن لا يأكل ويكثر؛ لسَعة الرّزق ووفور النِّعمة، وأمّا الصِّبْيَة فقد ملأ بطونهم القنبري والفشفاش والإيسكريم والأندومي، وغَسَلَها بالبيبسي كولا، والميرندا، وعَلَك عليه اللُّبان الذي اشتراه للصُّور المرسومة عليه.

فإذا استضفت فلا تثقل على الضّيف بأن تعرض عليه بإلحاح مصحوب بيمينٍ أو طلاق أن يشرب المَرقة؛ لأنّها خلاصة فائدة اللّحم، وأن يأكل ذنب الألْية؛ لأنّها دواء لنوع من أمراض المعدة، وأن يطعم من المُخّ؛ لأنّه يجلب النّوم ويزيد في العقل، ولا أن يلتهم اللّسان؛ لأنّه خطيب أو شاعر، والكبد، ليقوى دمُه، والجَرجير، لما هو مشهور، والسّمكة حتى رأسها؛ للمثال النّحوي مع السّؤال عن معناه، وطلب توجيهه والخروج من ذلك إلى قولهم: لا تأكل السّمك وتشرب اللّبن، وما المراد باللّبن،

هل هو المخيض أو الحليب، ولا تثقل عليه بالطلب في أكل الفاكهة والحلوى؛ لأنّ الحلوى تخصِبُ البدن وتزيد النّشاط، كما قال الأولون، وتأمر بتقديم المقطوعة الممنوعة، أعني: الفاكهة، لمجيئها مقدمة في الكتاب المكنون متناسيًا أنّه قال: ﴿يَتَخَيَّرُونَ﴾ و﴿يَشْتَهُونَ﴾ في الفاكهة واللّحم، وأنتَ منذ اليوم تحشوه حشوًا، وأكله بين حياء وإباء.

قد يكون في ملابسات الحال ما يوجب العَرض بإلحاح، وليس بخافٍ أمره على أهل الفطنة، كما فعل النّبي ﷺ مع أبي هريرة حين أمره بشرب اللّبن ثلاثًا حتى قال: (لا أجد له مسلكًا).

وأكثر الناس اليوم أهل حِمْية (سمانهم وغير سمانهم) إمّا لسِمنة، فيقلل من النّشا والدّهن، أو لا يخلط النّشا باللّحم، أو يقتصر على اللّحم، أو على الفاكهة .. وإمّا لمرض كالسكري، فلا يطعم من السكر وما يستحيل إليه إلاّ بمقدار، ويحرص على الخضروات كالبصل والكرنب، والحُلبة، وأسمر الأخباز، ومن الفاكهة ما هو بطيء الارتفاع كالتّفاح والبرتقال أو قليل السكر كالفريز (الفراولة) والخوخ، ويديم الأكل القليل كلّ ثلاث ساعات إن كان سريع الانخفاض، وإلاّ اشتد عطشه. وإمّا للالتهاب في المِعَى الغليظ (القولون) فيكون خير طعامه الرّز أو الدّخْن، ولا يصلح له الحامض ولا الدّسم ولا كثير اللّحم، وبعض من الفاكهة والخضروات.

بدايةٌ بلا نهاية !!

حضرت في جمع يضم نحو ثلاثين رجلاً، وطال المجلس ولم يأت الطعام والمجلس هادئ لا تسمع فيه بعضهم يتكلّم إلى مَن بجواره، وبعضهم ساكت تدور عيناه، فقلتُ لجليسي بعد أن رأيته متعجبًا من سكون النّاس وسكوتهم: الآن ألقي بين أيديهم شبكة يصطادون منها، ثم لا تجد بعد ذلك ما يسكتهم، وراقب كيف يكون تصريف الحديث

وتقلبهم في الكلام وإلى أيّ شيء سوف ينتهي ما ألقيه إليهم، فقلتُ لهم: سبحان الله .. الجو هذه الأيام يتقلّب!

فأقبل بعضهم إلى بعض، وقال واحدٌ منهم: نعم. وأخذ في بيان سبب التقلّب، وامتدّ الحديث إلى المدينة وأبها والطائف، وعن الأجواء فيها، وبلغ الحديث إلى شيكاغو، ثم تسرّب إلى الكلام عن القطار، فإلى الازدحام، فإلى الاقتصاد، وانطوى الحديث على اقتراحات وانتقادات، وطرائف، وجرى فيه ذكر البورصة، والأسواق، والطماطم، وحضر الطعام، ولم يتمّ الكلام، فأخذنا في ضروب القول والكلم حتى إنّ السّامع ليقول: لم يبقَ شيءٌ إلا مسّه من كلام ذلك السَّمر.

فقلت لصاحبي: انظر، كيف شرّقوا وغرّبوا، أدخلناهم من مكةَ، وأخرجناهم من شيكاغو .. لقد نسوا ما ذُكِّروا به، والتّلقائية والبساطة هي التي تصرف الحديث إلى كلِّ مَثَلٍ.

تردّدات الوجدان !!

ليس من اللاّزم أن يعجب غيرك ما يعجبك، خاصة في الألفاظ والأصوات، وليس بلازم أن يعجبك ما يُعجبُهم، فقد تطرب لصوت وتهز إيقاعاته وجدانك فلا يطرب له غيرك كما تطرب له، ولا يهزّ منه شعرة، إمّا لضعف الإحساس عنده وقوّته لديك، وإمّا لضعف الوارد وقوة الشّوارد التي تأخذ من وجدانه، فلا يبقى لديه ما يسع ذلك الإعجاب، وإمّا لذهول عارض يشغله عن الالتذاذ بما يسمع.

بل إنك أنت قد يختلف إعجابك في الحين الواحد، فتقرأ الشّيء الآن وتأخذ الألفاظ والتّراكيب بلُبِّك، وتهتزّ لها وتطرب، ثم تقرأها ثانية فتبحث عن إعجابك فلا تجده واردًا على نفسك كما ورد من قبل.

وسرّ المسألة في تقلب المزاج واضطراب المشاعر الخفيّة، وجرّب هذا تجده كما ذكرت، وهذا صادق على كلّ ما تقرأه إلا كلام الله، فإنّه هو الذي تجدّد معانيه في كلّ التأمّلات ولو كثرت، وهو الذي لا يَخلَق على كثرة الردّ، ولا يزداد القلب حين قراءته إلا سعةً وانشراحًا ولا يزيده ذلك إلّا تعظيمًا وإجلالاً، ولا يقدر المرء أن يزعم أنه لا يجد معنى زائدًا على ما عرفه بعد ترداده الكثير واجتلاء معانيه، هذا من إعجاز ذلك الكتاب الذي ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

شيءٌ من التقلّب !!

مرّ بالنّاس زمنٌ تقلّبت فيه القلوب بين المعروف والمنكر والحسن والقبيح والضارّ والنافع تقلّب اللّيل والنّهار؛ حتى صارت ترى المنكرَ في نظرها معروفًا والمعروف منكرًا، وتحيَّرت فيه الألباب، وذلك أنّ أحداث الزّمان تتوالى والفتن يتبع بعضها بعضًا، وفي كلّ يوم يخترع شيءٌ ويصنع جديد.

وأضرب لهذا مثلاً بأمر حصل معي من صاحب لي كان من أبعد النّاس عن الدّنيا وزينتها، مرتديًا لباس النّسك والزّهادة، حريصًا على مجالس العلم والإفادة، كان لا يرى من المروءة والدّين أن يكون في بيت المسلم تلفاز تبثّ فيه صورة - أيّ صورة -، بل يرى حرمته من جهات عديدة، من جهة التّصوير ومن جهة الموسيقى التي يشتمل عليها، ومن جهة صورة النساء، ومن جهة ما يبثّ فيه ... إلخ، فبلغه - وكان من جيراني - أنّ في بيت أحد أصحابه جهاز تلفاز، فلم يصدّق.

قال ذلك الصّاحب: فهتف عليَّ بعد منتصف اللّيل بساعة أو أكثر، يقول: يا لَلهول!! ويا لَلفجيعة!! ويا لَلمصيبة، وكلّما سألته عن الخطب ما هو؟ كرّر النّداء بالهول والكارثة، قال: سمعنا أنّ شيخنا في بيته تلفاز؛

وكان قد قال لي قبل بضع سنين: كيف تسكن في عمارة فيها تلفاز عند جارك ؟ فذكَّرته بذلك، وقلتُ له: إن أقررتَ بذلك فإنه يلزمك أن لا تبقى في هذه العمارة، فوَجَم. فتربصتُ به أيامًا حتى علمتُ أنّ جاره المباشر لديه تلفاز، فقلت لصاحبنا: هذا جارك الذي يسامت بابك بابه لديه تلفاز. فعبس وبسر، وقال: لا يمكن هذا ولا يكون. وغضب، وقال، وتوعد، وزمجر، فلّما تلاقينا بعد صلاة العصر، قلتُ له: دونك صاحبك. فناداه ليناقشه الحساب، وكان صاحبه جَدِلاً، فأخذ به إلى مَناحٍ، وأخذ يشرح منافع وجود التلفاز وأثره في التّربية والمحافظة على لزوم الولدان بيوتهم، ولم يخرج منه بشيء.

ومرَّت أعوام قليلة، ودخلت الدُّشوش، وأصبح ينقل ما يقع في أقصى الأرض في ساعته، وصار صاحبي تاجرًا مخالطًا للنّاس يتتبع الأخبار ويحللها، وجاءت حروبٌ، فاحتاج النّاس إلى متابعتها، فكان ذلك مسوّغا لاجتلاب الوسائل التي تنشر الأخبار، فجاءني صاحبي يومًا من الدّهر ناصحًا مُلحًا، يريد لي الخير والفلاح فيما قال، وأوصاني بإدخال القنوات، وشراء كلّ الوسائل للاطّلاع على الأخبار ومشاهدتها ومعرفة الرّأي والرّأي الآخر، وذكر فوائد ذلك، ونسي ما كان يدعو إليه من قبل، وهو معذورٌ في ذلك بعض العذر، ولكن المؤمن القوي لا يقلّد، ولا يقول: أنا مع النّاس أذهبُ حيث ذَهبوا، وقد كان بعض الذين يظهرون في هذه الشّاشات يأمرون بقنص الدّشوش من فوق الأسطح ورميها بالرّصاص لإتلافها .. إنّ المُنبتّ لا أرضًا قطع، ولا ظهرًا أبقى.

الإنسان . . والهمّ !!

ليس أمر الهمّ مقصورًا على النّاس، بل يدخل فيه النّاس وسائر الحيوان، فكلّهم يتحرك لطرد الهمّ، ففرار النّعجة من الذئبِ والسَّبُع

وحركتها لمصالحها، وانفعالها، ونطاحها؛ لأجل ذلك.

كلّ ما يفعله الخلق إنّما يريدون من فعلهم طلبَ الرّاحة، ولم أقل السّعادة؛ لأنّ من يسعى إلى الخلاص من نفسه لا يفعل ذلك لطلب السّعادة، فالسّعادة تساوي الحياة الطيّبة، وإنّما يفعل ذلك ليرتاح من الهمّ، ويتخلص من القلق.

ولعلّ الإنسان وحده من جنس الحيوان هو الذي يلجأ إلى قتل نفسه لما طبع عليه من عجل وضَعف، ولم أقل: طرد الهمّ، لأنّ الفاعل الذي يفعل الشّيء أو يمتنع عن فعله قد يكون منه ذلك حيث لا همَّ .. فإن قيل: طلب الرّاحة لا يكون إلاّ عن همٍّ، قلنا: لا يلزم ذلك إلاّ أن يكون المراد بالهمّ معنًى أوسع ممّا هو معلومٌ من معناه، مثاله: من أكل لأنّه جائعٌ حتى شبع فعل ذلك شهوةً لا أكلَ جوع، كان ذلك زيادة طمع في راحة النّفس من حيث يحسبها راحة، وليس له من همٍّ يعالجه حين ذاك.

فكرة !!

قلتُ في أكثر من مناسبة:

هبْ أننا جمعنا عشرةً من صغار الطّلبة قبل سنِّ العاشرة، وعزلناهم عن المجتمع مخالطةً وسماعًا وكلامًا وثقافةً، وعن كلّ شيء يخل بمقصود عزلتهم، وجعلناهم في مكان في البادية أو الحاضرة، وجعلنا بينهم عددًا من القادرين على النُّطق باللّغة العربية الأفصحيّة، الممكنين من تجنّب اللّحن، العارفين بغريب اللّغة، فلا يسمع أولئك الصِّبية إلاّ مفردة عربية، وكلمة مُعْربة؛ إذ لا يطرق سمعهم إلاّ كلام الله وأشعار العرب وخطبها، وتسمّى لهم الأدوات والآلات والأعضاء والأطعمة وكل مسمّى بأسماء قاموسية من غريب اللّغة، حتى إذا تمكنوا من اللّغة أيما تمكّن وأُمن عليهم

من الفساد، وشُدِّد عليهم في المحافظة على لغتهم، وحُذِّروا من التّفريط فيها، أُذِنَ لهم بالمخالطة للحاجة، ومُنِعُوا من النُّزول عن طريقتهم في التّخاطب حتى مع غيرهم، ولا أدري كم يحتاجون في ذلك من زمن، فهؤلاء إذا أُعِدُّوا هذا الإعداد، وفّر عليهم ذلك قضاءَ سنين كثيرة في تعلم كثير من علوم الآلة، وكانت ملكاتهم قريبًا من ملكات من كان في العصور المُتَقدِّمة ولا فرق، ويسَّرَ عليهم ذلك فهمَ نصوص الكتاب والسّنّة.

ونحن اليوم طال علينا سبيل العلم، واحتجنا إلى دراسة كثير من العلوم لا تتعلم لذاتها، بل تتعلم لغيرها، ويقضي في ذلك وقتًا طويلاً.

والنّاس في ذلك طرفان ووسط؛ قومٌ أفنوا أعمارهم في تعلّم الوسائل ولم يخدموا الأصول بتلك الوسائل، فكانوا كإنسان أراد الطريق الموصلة إلى الحرم فسلك الطريق الموصل إليه ببطء، فلّما قاربه مكث يراوح في مكانه ولم يصل إليه، وقد كان هذا فرضًا في زمن حفظ اللّغة وتدوينها، وهيأ الله أوعية حفظوا اللّغة في صدورهم ودوّنوها، ولعلّهم لو اشتغلوا بالحديث ورجاله لم يبلغوا تلك المرتبة، فإنّ المواهب وإن تعددت في ذات واحدة لا تتعدد معها الرّغبات والميل، وقصرت عن المطلوب في جوانب متعددة.

وقوم آخرون استهانوا بعلم الآلة، وزهدوا فيه أو زُهِّدوا إذ نشأوا على طريقة لا تعنى بذلك، وفيهم من يذمّ تعلم النّحو واللّغة.

وعاب عليّ أفراد من الناس توسعي فيهما، وعنايتي بذلك تدريسًا وتصنيفًا، وفيهم مَن لا يقيم جملة صحيحة، ولا يحسن الولوج في تفاصيل ذلك العلم، وسبب ذلك أنني نظرت في حاجة الطلبة، وماذا يريدون، وماذا ينقصهم، فرأيت رغبتهم وحاجتهم إلى تدريس علوم اللّغة والآلة، فلم أتوانَ في بذل الجهد في قصر الدّروس فيه، ولا يعني ذلك

إفراغ جهدي ووقتي كلّه في علم الآلة، فمن خالطني عرف انصرافي للفقه والسّنة والتّفسير، واستغراق معظم وقتي فيها قراءة وجمعًا.

مِن الآخِر .. !!

كان الحبُّ إلى عهد قريب كما صوّره أحمد شوقي في بيته المشهور:

نظـــرة فابتســـامة فســـلامٌ فكـــلامٌ فموعـــدٌ فلقـــاءُ

واليوم يأتي الحبيب إلى الحبيب من الآخر .. اللّقاء! ومعه كل ما قبله.

حقيقة المتعة .. !!

المتعة الحقيقية هي متعة الرّوح والعقل، ومصـدرها العبـادة والعلـم، ولا تكمل متعة الرّوح إلاّ بالعبادة التي تشـترك فيهـا الـرّوح مـع الجسـد، ويتواطأ القلب مع اللّسان وسائر الجوارح، وإلاّ فهـي حركـات داعيـة إلى الملل، ولهذا لا ترى صاحبها يقبل على تكرارها برغبة تامّة .. وإنمـا قـال الله لنا: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥٣] لما نجد في الصّلاة من ترويح على الرّوح؛ لأن الصبر يجثم على الـرّوح، فـإذا كـان المـرء في الصّـلاة أصبحت الرّوح في مجال رَحب فسيح ليسبح لـه الكـون، وإذا أحسسـتَ بنقص في ثمرة الصّلاة؛ فاعلم أنّك لم تقمها حقّ الإقامة، فالصّبر كالدّواء المرّ، والصّلاة كالغذاء المحبوب، ولا تكمل متعة العقل إلّا بالعلم.

وغالبًا لا تحصل تلك اللّذة في الصّلاة إلّا مع طول الطمأنينة والقنوت، وقد يحصل لبعض النّاس أنّه إذا أطال في الصّـلاة تتـوارد عليـه الخـواطر والوساوس، ولهذا الدّاء أدوية، منها:

أن يربّي نفسه على ترك الخروج عمّا هو فيه، والمبـادرة إلى الاسـتعاذة عند كلّ وسواس، ومنها: أن يَـدَعَ الإطالـة في الصّـلاة، ويكتفـي بإقامـة

أركانها ولا يطيل الطمأنينة، ويذكر عن عمّار بن ياسر، وطلحة، والزّبير أنّهم كانوا لا يطيلون الصّلاة، ويقولون: نبادر بها وسوسة الشيطان.

مسحور

تتلف المرأة زوجها بنيران الغيرة حتى يفقد الرّاحة عندها، ويميل إلى من يجد لديها الأنس وهدوء البال، وكثير من النسوة إذا عرفن عزوفَ أزواجهن عنهن، قالت الواحدة منهن: إنّه مسحور، أي: من قبل الأخرى .. ونَسيتْ أن ما فعلته به وما لقيهُ من عنت الحساب والصّدود والهجر والنّشوز وما يحدث الصراع من انزعاج البال من القلقلة والبلبلة = هو أشدّ من السّحر وأقوى تأثيرًا، وأشدّ بأسًا، وأشدُّ تنكيلاً .. وقد لا يردّه شيء.

فلا هو ممّا يقبل الرّقية، ولا ممّا يسوغ فيه العلاج .. فالعاقلة من أتقنت نظام البيت، وذكرت بالعدل والوفاء بالحقوق، ولم تغفل حقّ نفسها.

بَلْوى .. !!

فئتان من أهل العلم، إحدهما أطالت الطريق على نفسها، والأخرى خرجت عنه، فالأولى: المثقفون، أغرقت في الاشتغال بدقائق المسائل الفرعية، وتفصيل مسائل الطهارة ونحوها من الأحكام، تفصيلاً يولّد الوسوسة والشكوك، وينأى بالمرء عن فطرته التي جُبل عليها، ولو اطّلع القارئ فرأى بعض المتون الفقهية وما عليها من شروح، وما على تلك الشّروح من حواشٍ ونظم لبعض مسائلها، لأدرك صدق ما قلت، ورأى الطّريق طويلاً غير مستقيم، وتبيّن له أنّه كلّما أوغل في تلك التّصانيف بعد عن نصوص الوحي ونوره.

هذه فئة، وفئة أخرى ظاهرية أكثر من أهل الظّاهر حين تشتهي، وتدفع عن نفسها التّهمة (وما أحسنها من تهمة) بذمّ ابن حزم أو غيره، أو بذمّ

المذهب نفسه .. والله المستعان.

كل امرئٍ في بيته صبيٌّ !!

من مشهور الكلام قولهم: (أزهد الناس في العالم أهله).

وهو عن عروة بن الزبير أو الحسن، وهو كلام حسن صحيح، فإنّ العالم في بيته بين أهله وولده لا يكون حاله كحاله بين النّاس، فأهله في البيت يرون جدّه وهزله وخطأه وعمدَه، وكلّ ذلك عنده، ويرون من عيبه وتقصيره ما لا يراه النّاظرون، وهو فوق ذلك ثقيلٌ عليهم بأمره ونهيه، وانشغاله بالعلم وبالقراءة والكتابة، وحملهم على ذلك، وقد يجدون في خطابه للنّاس من كلام الزّهد والورع والتّخويف والخشية والتّباكي وغير ذلك ممّا يحرك وجدانه في مقامه ذاك، ما لا يجدونه وهو معهم، ويرون فيه من اللّطف والحكمة ما لا يشعرون به وهو يخالطهم .. وقلّ أن يكون في العلماء مَنْ حالُه بين النّاس وفي بيته على سَواء، وأقلّ من ذلك أن يكون حاله في بيته أفضل، قال ابن حزم في رسائله: (وقرأتُ في الإنجيل: «لا يفقد النبيّ حرمته إلاّ في بلده»). *

الغيرة العلميّة

كان لي صاحب في المرحلة المتوسطة يحفظ متونًا في النّحو والصّرف والبلاغة وغيرها، وكان سببًا في عنايتي بالحفظ والنّظم وكتابة الشّعر، وكنتُ أيامئذٍ لا أرضى بأن يوصف بالتّفوق غيري في أيّ شيء، حتى في اللّعب، وانتفعتُ بذلك كثيرًا، وتحقق لي كثيرٌ ممّا أردتُ، فتميّزتُ يومها بين أقراني بالشّعر والحفظ والتّلاوة والخطّ والخطابة والاطّلاع وجمع الكتب .. وكان بيني وبين ذلك الصاحب مساءلات ومباحثات في كلّ لقاء، وربما تمادى ذلك إلى الخصام والهجر أحيانًا، ومعظم المساءلات

كانت في إعراب كلمات القرآن، مكثنا في ذلك زمنًا طويلاً بالمشافهة تارة، والمكاتبة في الفصل في جميع الحصص تارات أخرى.

وكان ممّا دار بيننا في بعض التّحاور أنّني سألته في يوم من الأيام عن إعراب (طاغين) في قوله تعالى: ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ [الصافات: ٣٠]، فتغافل ليعود بعد قليل لأعيد عليه السؤال، فسألتُه، فقال: الجوابُ هو ما قاله النّاظم:

وخبرٌ ﴿قومًا﴾ و﴿طاغين﴾ صفة فافهمه عني يا قويّ المعرفة

فقلتُ له: من أين لك هذا ؟ قال: من منظومة تزيد على ثمانمئة بيت. قلتُ: أتحفظها كلّها؟ قال: نعم. فحرّك ذلك خاطري، وانبعثت غيرةُ الأقران، وأسررتها في نفسي، وقلتُ: أنا بمثل ذلك أولى لأني أحفظ القرآن. فسألتُه في وقتٍ آخر عن إعراب كلمة ﴿أمنة﴾ من قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: ١١]، وانكشف الغطاء بعد ذلك، وحصل ما ذكرته في المقامة الإعداديّة من كتابي (ذات الأكمام).

لا تلتفت .. !!

إن من رحمة الله تعالى علينا أن فتح لنا أبوابًا لا تحصى كثرةً للخير والعمل الصالح؛ حتى إنّ المرءَ يستطيع أن يجعل حياته كلّها عملاً صالحًا في كلّ حركاته وسكناته ونومه ويقظته ..

والله قسم الأعمال الصّالحة بين النّاس كما قسَّم الأرزاق، فهذا فتح عليه في باب الصّلاة، فحببت إليه نافلة اللّيل، وآخر فتح عليه في الصّوم، وثالثٌ وفَّقه الله للذّكر وقراءة القرآن، ورابعٌ رزقه الله مالًا فسلطه على إنفاقه في الخير، وخامسٌ رزقه الله العلم والحكمة فهو يُعلِّم النّاسَ ويقضي

بينهم بالحقّ. ومن النّاس من أوتي الشجاعة فهو يقاتل في سبيل الله أعداء الله، ويصبر ويصابر .. فهؤلاء و أمثالهم هم الذين وفقهم الله لطريق الجنّة، فهل جهلنا نحن الطريق؟!

إننا لم نجهل الطريق ولكننا نمشي ونلتفت، ونزهد في الدّنيا وننظر إلى فوق .. قال بعض السّلف عن الإمام الحسن البصري: ما رأيتُ رجلاً أعلم بطريق الجنّة من الحسن البصري.

اطلب العلم ولا تكسلْ

ترد إليّ أسئلة في الهاتف والبريد الشّبكي: شيخنا الكريم، ما هو كذا، وما معنى كذا، ويكتب بعضهم ويقول: أنا أحضّر الماجستير، ووجدت كلمة (كذا)، أفيدوني عن معناها أو إعرابها.

أقول لهؤلاء: مثل هذه الأسئلة لا أجيب عنها، ولا ألتفتُ إليها، ولولا المداراة لوبّخت سائلها، فوسائل البحث اليوم على قمَحْدُوة[1] من يحمل، أي: (على قفا من يشيل)، وطالب العلم حين يصل إلى مراده ببحثه وتنقيبه خيرٌ له وأشدّ تثبيتًا، وعليه أن يسأل عن الوسيلة التي يبحث بها إن كان لا يعرف، أو يسأل عن كيفية استعمالها، أو عن المرجع الذي يعود إليه للحصول على المطلوب، فإن اعتاص عليه شيء بعد ذلك أو لم يفهم المراد سأل أهل العلم مستفهمًا عمّا عسُر عليه فهمه، وهذا خيرٌ له وأشدّ تثبيتًا لمسائل العلم، ثم لا تظنّ - أيها السّائل - أنك حين تسأل عالمًا عن لفظة معجمية غريبة أن مَن تسأله محيطٌ بجميع معاني الألفاظ، فإن قُدِّر ذلك - وهو متعذرٌ - فالحفظ يخون، وخيرٌ لك أن ترجع بنفسك إلى كتب اللّغة وإلى التّنقيب عن الألفاظ، ولك أن تتثبتَ بعد ذلك،

(١) مؤخرة القفا.

فتعرض ما فهمته وتصحح قراءتك، لتكون واثقًا من فهمك، وواثقًا من سلامة قراءتك، والسّلام عليك.

لا تلغ عقلك

وجدنا في الناس من لا يُتَّهم في دينه ولا خلقه، ولكنه يتّهم في رأيه وعقله واختياره، ومن أصناف هؤلاء - مثلاً - من تضعف ثقته بنفسه، وتقوى بغيره، فيسلِّم نفسه لمن يتأسَّى به في نهجه ومعاملته مع النّاس، وقد يكون المقتدى به من أورع النّاس وأعلمهم، ولكنه غلب عليه طبعه أن يجنح إلى رأي أو طريقة عوجاء، فيسلك المتأسي به مسلكه في سلوكه، وينسى أنّ ذلك مخالفٌ للنّهج الصّحيح .. وذهل عن الاقتداء بالنبي ﷺ الذي قال الله في شأنه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، فيقتدي بغير معصوم، ويظن ذلك من الخير، فهذا مع ما له من الجاه و الإجلال بين الناس لا يشفع في شيء، ولا ينفع في شيء، وينسى في ذلك هدي رسول الله ﷺ وما حثّ عليه الكتاب والسّنة.

وآخرُ ضعيف الوفاء لانطباع خلق من يتأسى به عليه، وكأنَّ ذلك أقوى من استعداده للاقتداء برسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وثالثٌ يُقتِّر على نفسه وأهله تبعًا لغيره، وسبب القوة النّفسية المنفعلة في هذا موافقةُ الطّبع، فيتطبّع بما يوافق طبعه أو يشابهه.

فكرة وفكرة

- قد يبذل الإنسان المال ويتصدق على الفقير، ولكنه يستحضر مصلحة من المصالح عنده، ومن الأمثلة: أن يكون الفقير يوسّع له في المسجد، أو مصاحبًا لغني، أو إنسان له مصلحة عنده، أو يقبّل رأسه أو

يده، أو يَنمّ له .. وهكذا.

- إذا أردتَ أن تفعل خيرًا من معروف أو صدقة وعدتَ بها، أو هديةً أردتَ أن تهديها وأخبرت صاحبها، فسارِعْ بإنجاز ما وعدتَ، وإنفاذ ما طُلبتَ، فإن ذلك أفضل في الدّيانة، وأحفظ للكرامة، وأقرب أن يصل إليه جميلك وافيًا، وأدنى أن لا يرتاب في مقاصدك ومرادك، وإلاّ فقد يعود معروفك عليك بالذّمّ بدلاً من المدح، وبالقدح بدلاً من الثّناء، ولا قيمة لخير تفعله لأحد لا يصل إليه إلاّ بعد أن تشتري كرامته، وتستنفذ طاقته وجهده، فإن استطعتَ أن تسعى إليه بنفسك، وتجهد في تعجيل المنفعة له، وتحسن إليه إحسانًا فوق إحسانك فافعل، وإلاّ فأنت كمن يتصدق على الفقير بشرط أن يذلّ لك ويخضع، وليس هذا من فعل المتّقين، ولا أحرار الرّجال.

من عجائب الأخلاق

أعرف رجلاً حيّرني أمره، آية من الآيات البيّنات في حفظ الطّرائف والأطراف، والفوائد والأخبار، والسّير والأشعار، وله باعٌ في إصابة الرّأي عند المشورة بسبب ما يعرفه من أخبار النّاس وتجاربهم، فيقدم للنّاس الرّأي والمشورة، ويشرح لهم عواقب العجلة، ولا يقدر أن لا يعجل، ويحثهم على الصّبر، وبينه وبين الصّبر جفوة، وقُلْ مثل ذلك في سائر الأخلاق والسّير، ليس له منها إلاّ تطبّع يسير ينكشف في أوّل مجالسة، وكأنما ركّب من عناصر، أوّلها الخُرق، فلا يعرف حين يتردد ماذا يعمل، فيفزع إلى مَن بجواره ولو كان صبيًا أو حارس بيت أو سائقًا يسأل: ماذا يصنع؟ ويضطر إلى كشف سرّه، وأعجب شيء - وهو الذي من أجله سقتُ الحديث - أنه يسألك: هل يشرب الآن أم بعد قليل، وهل يخرج أم لا يخرج، وهل ينام الآن أم بعد الفجر، وهل يطلّق الأولى أم الثّانية.

وأقدِّر أنّ سبب ذلك ألوانٌ من اللّوم القاسي وُجِّهت إليه في صباه لحماقات وزلاّت وقعت منه أفقدته الثِّقة بنفسه، ولله في خلقه شؤون.

مساكنة القرابة

مساكنة الوالد لأولاده بعد زواجهم في بيت واحد من الأمور التي يُظَنُّ أنّها أسعد للوالد والولد والأهل، وأنّها من تمام البرّ والصِّلة، وليس كذلك على كلّ حال، فإن الأولَى بالوالد القادر أن يستقلّ وحده، ويريح بالَه من المعاناة التي يجدها من جرّاء ما يراه ويسمعه ولا يصبر عليه إن كان من أهل الضّجر والفضول والرّغبة في السّيطرة، واعتقاد أنه ما دام هو الكبير فعليهم أن يسمعوا له ويطيعوا في أمر حياتهم، وملابس الولد والزوجة، وخروجهم ودخولهم، وكلامهم وأصواتهم، وعبثهم المباح، وأن مخالفته في شيءٍ من ذلك من العقوق الذي هو من أكبر الكبائر؛ لأنه كبير العائلة، وعلى الابن أن يطيعه هو وزوجُه.

ويزيد تعنت الوالد إذا كان هو الذي زوّج الولد، وأعانه في المهر وتكاليف الزواج، وربّما جعل ذلك مِنّة يمنّ بها كلّ حين. فإن كان بين الوالد وزوج ابنه نُفرة فلا تسل حينئذ عمّا يكون وما لا يكون من ألوان الفتنة والشّحناء.

هذا هو الغالب، وليس الأمر قاعدة مطّردة. فإن قلتَ: فما الواجب على الولد؟

قلتُ لك: الواجب عليه البِرّ التّام وإرضاء الوالد، والبحث عن أسباب ذلك، وقد يكون من أسبابه عزله عن زوجه، وتوفية خدمته، وتقديمه على كلّ شيء، وبذل ما يستطيع في إراحته، وأمّا قهرُ امرأته وإخضاعها بالقوّة لتخدم وتسمع وتطيع، فإلزامٌ لها بما لا يلزم، وفيه تكديرٌ للخواطر

كلّها، ولن يسلم والدٌ من أذى، لا سيّما إن كانت من ذوات الكيد العظيم، وهذه المسألة من دسائس الشّقاء الذي يقع لكثير من النّاس، حيث يظنون أنّ سعادة ذوي القربى في المجاورة والمخالطة والمشاركة في كل حال، وهو بعيد المنال، في الأعمّ الأغلب، والعاقل من سعى إلى أسباب السعادة بدرء المفاسد عنها قبل تحصيل غايتها.

الصِّدقُ والبيانُ

شاركتُ صاحبًا لي في أمر من أمور الدّنيا، ولم يكن له بي سابق عهدٍ بمعاملة، وإنّما كانت صحبتنا صحبة دراسة وعلم .. فقلتُ له: لا بدّ من إيضاح ما تنطوي عليه نفسي، ويمضي عليه طبعي في تعاملي معك ومع غيرك. لتعلم أنني مسلمٌ أعلم يقينًا ما يجب لي، وما يجب لغيري في أمر الشّركة من الصّدق والبيان وعدم الكتمان والوفاء بالحقوق .. وهذا أمر يدّعيه كلّ منا، ولكن الطّبع قد يؤثر في ذلك، ويجنح به إلى ذات الشّمال. فأنا أوضح لك ما تَطَبَّعتْ عليه نفسي: مَن قال إنه لا يسعى لمصلحة نفسه ابتداءً في بيع أو شراء أو شركة أو حوالة أو رهن أو عارية أو قرض= فهو كاذب مخادع أو مجنون، وقد تكون مصلحته أخروية محضة، وهذا قليل نادر.

فمن الناس: من يسعى لتحصيل مصلحته، ولا يهمّه مصلحة غيره، ولا ما يجرّه تحقيق مصلحته من ضرر لغيره .. وأنا لستُ من هؤلاء، وأعوذ بالله أن أكون منهم.

ومنهم: من يسعى لتحصيل مصلحته ولا يريد الإضرار بغيره، ولا يحبّ ذلك، بل يحبّ أن يكون لغيره مثل ما يريد لنفسه، ولكن قصده المباشر هو تحقيق مصلحته هو .. فهذا لا يعاب، بل يحمد له عمله ونيته.

ومنهم: من يكون قصده أوّلاً تحقيق مصلحة لغيره، ويسرّه أن يحصل مثلها له تبعًا، فإن لم يكن نفعٌ لم يَسُؤه ذلك، فهؤلاء هم أهل المرتبة العالية، وهم قليل.

وأعلى منهم وأجلّ وأقلّ: مَن يعلم أنه سيضرّه فعله، ولكن سيحقق مصلحة لأخيه، فيؤثره على نفسه في الحالين في تحمل المفسدة وبذل المصلحة لغيره .. ولا أدّعي هذه المنزلة، ولكنها إن حصلت من غير قصد مني ولا منك رضيتُ بها.

فأفتني في أمرِك، وأوضح لي طبعك؛ لأكون على بيّنة منه، ويتلوه بعد ذلك شاهدٌ من عملك، فإن وفّى كلٌّ منّا فهو المبتغى والمرتجى، وإن قصّر أحدنا لم يجلد نفسَه بسياط اللّوم على تفريطه وغفلته .. وفي الصّحيح: «**فإن صدقا وبيّنا بورك لهما**».

صنفٌ من الناسِ

تتكوّن عند كثير من الأذكياء المعلومات، فتبقى على شكلها منضبطة في أذهانهم على شكل جزئيات لا تكوِّنُ قضية كبرى يطورها أو ينتهجها؛ لأنّ المعلومات تنطبخ في ذهنه بلا خميرة؛ فتحفظ في ذاكرته، وتبقى في ذهنه كالحصاة الصّغيرة التي تطرح في النّهر، فتحدث دائرة صغيرة حولها عند نزولها إلى قاعه، وهذا غالبٌ على الحُفّاظ، يستحضرون معلوماتهم فيعملون بمقتضاها.

وهذا النوع تقلّ مقدرتهم أن تعالج قضية كبرى يطول فيها بحثهم وتحليلهم، وأقرب ما تكون تناولاتهم خطابية، يجيئون ويذهبون في ميدان صغير، فإن تكلفوا في توسيع الميدان بقوا على ما هم عليه في السّطح دون عمق ولا غوص .. ولهم مع ذلك خيال لكنّه ساذج في معظمه، وهم

أبعد ما يكون عن الإبداع والتّجديد وملكتهم إعجابية، يعجبون فيطربون فينتحلون .. ولما كان طبعهم التّقليد ضَعُفت الثّقة بأنفسهم عند أنفسهم وسهل تشكيكهم.

كان لي قرين

كان لي قرين أيَّام الصّبا، جمعتني به إحدى مراحل الدّراسة يقول: ماذا تريد بحفظك للقرآن، واشتغالك به، ودراستك في حِلَق العلم في الحرم، ما لك ولهذا؟! فالقرآن يحفظه صغار العجم. ويلحّ في هذا إلحاحًا مُريبًا، وكان يصرف جلَّ همّه وأكبر وقته في قراءة الصُّحف ومتابعة الأخبار والتحليلات السياسيّة، رجمًا بالغيب، وادّعاء بالرّيب، وكان فوق ذلك عفيف الجبهة (لا يُصلِّي).

ومن لطف الخالق سبحانه بي - وربي لطيف لما يشاء - أنّني لم أكن سريع التّأثر بأحدٍ في قضايا الفكر والدّين، ولا أزال كذلك، وأقدّم في ذلك إمّا الحذر، لاسيّما في مقتبل العمر، وإمّا العقل والرَّويّة، ولم يكن حال ذلك القرين محمودًا في دنياه، فارتدّ به الحال إلى حالٍ ذليلةٍ وفقرٍ، وضُربت عليه المسكنة .. وتوالت السّنون وقذف به الزّمن إلى مكان آخر، ولم أسمع خيرًا عنه، في تلك السّنين، ثمّ لم أعد أسمع بخبره، وها أنذا اليوم أجد أن كُبرى نِعَم الله عليّ هو ما كان يلومني فيه ذلك القرين الذي كان - أيامئذٍ - شيطانًا من شياطين الإنس الكبار، ولم يزل للقرآن بركة عليّ في ديني ودنياي، وكم استعصمت به حين لا عاصم إلاّ الله فعُصِمت، وتلك من نعم الله عليّ، ولولا نعمة ربي لكنتُ من الخاسرين.

رحمة الله عليهم

تتلمذتُ وقرأتُ على علماء من بلادٍ مختلفة من بلاد الحرمين واليمن

ومصر والسودان وسوريا وموريتانيا والمغرب والجزائر والحبشة وغيرها، وانتفعتُ منهم جميعًا، ولكن انتفاعي بالمدرسة الموريتانية والطريقة المصرية أكثر وأقوى.

فإن طريقة الموريتانيين تُغلِّب جانب الحفظ، وكأنَّ العقل يمنع من أن يرتع في غير ما يحفظ، وتربّي الطالب على تعظيم أشياخه ومَن سبقهم تعظيمًا يمنع من المخالفة، ويورث ضيقًا في الفكر ويحول بين الطالب وبين التّحرر الفكري.

وطريقة المصريين غير التّقليديين وهم الذين في الغالب تحرروا بما جدَّده الشيخ محمد عبده الذي كان لمدرسته هو والشيخ محمد رضا من خلال (مجلة المنار والتّفسير والفتاوى) أثرٌ على العالم كلّه في الشّام والجزائر وتونس والحجاز والهند وغيرها، وقد كان لهذه المدرسة - أعني مدرسة التحرر، وترك التقليد بالآثار - أثرٌ عليّ منذ الصّغر قبل أن أتربّى على حفظ المتون ودراستها ،وقبل أن أتعاطى النّظم والتّلقي على علماء شنقيط في المدينة النبويّة، شرّفها الله.

وانتفعتُ بنهج شيخنا أبي عبدالرحمن ابن عقيل في كثير من مناحي العلم، لاسيّما حين مكثه في منزلي الشّهر والشّهرين، أبًا صالحًا كريمًا وعالمًا جليلاً، ينجذب إليه أولو العلم على اختلاف درجاتهم، فلا ينقلبون إلاّ بعد نصف اللّيل، وقد تركوا كتبي منثّرة، ودفاتري منشّرة، كما انتفعتُ بالشّيخ أبي تراب في اللّغة العربية.

وأكثر مَن لازمته وانتفعتُ به وقرأتُ عليه الشيخ أحمد بن شيخه حامد الموريتاني، والشيخ أحمد عبد العزيز الزّيات، والشيخ محمود سيبويه البدوي رحمهم الله جميعًا، الأوّل في النّحو واللّغة، والثّاني في القراءات، وكذلك سيبويه في القراءات واللّغة.

وانتفعتُ في الحديث بعدد، منهم: الشيخ عبد الله الحسامي، رحمه الله، والشيخ عمر بن عبد العزيز في أصول الفقه، وبالشيخ عبدالرزاق عفيفي في الفتوى، وغيرهم كثير، وما من عالم خالطته أو طالب علم حادثته، أو تلميذ لازمني ولازمته إلاّ وانتفعتُ منه في أمر من أمور العلم أو الحياة.

الكواشِف

أسماء العائلة أو القبيلة تكشف عن طبائع أهلها وصفاتهم ومعاناتهم وتفكيرهم وحضارتهم، ولا تكاد تجد في عرب الجاهلية التي كانت تموج بالهمجية والظّلم من اسمه عادل، أو صالح أو مصلح، وشاع عندهم التّسمية بظالم وقاسط، والقاسط هو الظالم، والمقسط: العادل، مِن: أقسط، بمعنى: أزال الظلم، فالهمزة فيه للإزالة لا للتّعدية.

وتجد في أسمائهم نحو نَمِر وأسد وكلب وسَيف، ومنهم مَن يُنعت بآكل المُرار، وبالسَّفاح، وبالعاصي، ويسمّون مواليهم بأسماء حسانٍ، كنافع ويسار ورَباح وسالم، وأمّا أسماؤهم المنبئة عن شركهم ووثنيتهم، كعبد العزى وعبد اللات وعبد مناة فمشهورة.

وفي البدو من يُسمّى اليوم بمثل العرب الأوائل، لاسيما الأسماء التي تدلّ على الشّجاعة والحميّة، ولشدّة الحاجة إلى المطر والغيث، وبناء حياتهم على وجود الماء لبعدهم عن الأنهار والآبار المدرارة يُسمّون بمطر وغيث، وأحيانًا تَتَقصّى العائلة الواحدة لفظًا بمشتقاته، فيسمّون بمطر ومطرة وماطر ومطران ومطيرة، وأعرف في ذلك أسرة بمسمّيات أسمائها.

وتجد في النّاس من اسمه شحّات اسمًا لا لقبًا، وكذلك خدّام وَفُقَرا وفقيرٌ، ويكثر في الشّيعة من يُسمّى بعبد الحسين ومهدي وعبد الرّضا وباقر وجعفر، ولا تجد فيهم مَن يسمّى بأبي بكر أو عمر أو عثمان، أو طلحة أو الزّبير.

وأهل السّنة لا يجدون في أيّ اسم من الأسماء غَضاضة ولا تعصبًا إلاّ فيما نُهينا عنه، ولا يوجد اسم من أسماء الصّحابة والتّابعين لهم بإحسان تسمّى به أحدٌ من الشّيعة أو غيرهم إلاّ وتسمّى به أهل السّنة.

اللّغة .. والشّرع !!

من اعتنى بدراسة اللّغة العربية نحوًا وصرفًا وبيانًا ودلالات ومعاني، قَويت ملكته في ذلك، وسلّط معرفته اللّغوية، وملكته الفكرية في فَهم النُّصوص نصوص الكتاب والسُّنة وغيرها.

فاللّغة والعقل هما اللّذان يوصلان إلى الغاية المطلوبة، ولا فرق حينئذ بينه وبين مَن كان في القرون الأولى التي لم يكن فيها إلاّ هاتان الوسيلتان، وبراعته في ذلك بقدر براعته في فقه اللّغة وضبطها، وبقدر قوته العقلية، وبراءته من الدّخائل التي داخلته من هنا وهناك من دعاة التّقليد والمشوشين على الفطر السّليمة بالأقيسة الفاسدة والتّعاريف والتّقاسيم والتّمحلات التي تزرع الوساوس وتجنح بالفكر عن جادة الصّواب.

ولم يكن لأصحاب النبي ﷺ شيء غير معرفتهم بلغتهم التي نزل بها القرآن، وتكلّم بها النّبي العربي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأين كان النّاس قبل أن يصنّف الشّافعي كتابه (الرّسالة) في أصول الفقه؟

كانت هذه المعاني مركوزة في أنفس الناس، فكانت سليقة من سلائقهم وقريحة من قرائحهم، كما قال صاحب (مراقي السّعود):

أول من صنفه في الكُتُبِ ... محمد بن شافعٍ المطلبي
وغيره كانت له سليقة ... مثل الذي للعُرْب من خليقة

وهذه السّليقة التي ذكرها أساسها الفطرة السّليمة المؤيدة بالفطنة المغذّاة بالمعرفة اللغوية، فإنَّ علم أصول الفقه فكر ولغة وممارسة

لنصوص الكتاب والسّنة، ليس هنالك شيء آخر يهتم به. وأمّا الإجماع ومعرفة الخلاف؛ فإنّ العالم يستطيع أن يدركه بمعرفته لما يجب أن يكون عليه الإجماع، فالضّروري من الدّين لا يجهله من عَرف الدّين.

ولسنا بهذا ندعو إلى أن يطرح طالب العلم كتبَ أصول الفقه وكتبَ الفقه، فلا يدرسها ولا يطالعها، لا نقول ذلك، بل ندعو إلى قراءتها وقراءة غيرها، ففي كثير منها فائدة كبيرة لا سيما ما كان منها صافيًا واضحًا، ككتاب (الإحكام في أصول الأحكام) لابن حزم، وكتاب (الرّسالة) للشّافعي، و(الموافقات) للشّاطبي، وبعد ذلك (المصفى) للغزالي، ولكننا لا نقول: لا يمكن للعالم أن يكون عالمًا فقيهًا إلّا بدراسة هذه الكتب، ومن قرأها بعد تجرّده وصفاء منهجه ودراسته للغة العرب اتّسع له طريق المعرفة وقويت ملكته.

والمقصود أننا لا نحتاج مع نصوص الوحيين إلّا إلى فكر ولغة، فهما طريقا المعرفة الموصلان إلى الحقائق الشّرعية.

الله أكبر .. أربعًا !!

إذا لم يكن العالم يحيي علمه بتدريسه، أو بالوعظ، أو بالتّصنيف، فعلمه في نقص، فإن كان فارغًا إلاّ من ترك المذاكرة والقراءة النّافعة فسلّم على ذلك الذي كان بالأمس عالمًا، وكبِّر عليه اليوم أربعًا أو خمسًا أو ستًّا أو سبعًا، كلّ ذلك صحيح ثابت.

بسم الله !!

(بسم الله) لفظ يطلقه اليوم كثير من الجهلة وأشباههم، ولاسيما النساء على الجنّ؛ لأنّهم يخافون من لفظ «الجنّ»، فيقول القائل منهم إذا أراد أن يذكرهم: بسم الله، ودخل فيه بسْمِ الله، وأعوذ بالله من بسم الله.

فانظر إلى هذا الجهل الفاحش الذي غاب فيه الفهم والعقل والتّوكل والشّجاعة، وهكذا الخوف من العين والحسد، حتى إنّ المرأة لتخشى أن يُعرف كم عدد أولادها، فإن سئلتْ، قالت - إن كان عددهم خمسة -: يا حافظ، يا حافظ، يا حافظ، يا حافظ، خمسة، وتكتم ما في رحمها عن أمّها وأبيها، حتى لا تُحسد فيسقط جنينها، وأكبر ما يحزن له القلب أنّ هذا الأمر يكثر لدى أهل التّديّن والالتزام، وقد أوحى إلى بعضهم أولئك الرّاقون أنّ سماعهم للغناء ووجود التلفاز في بيوتهم هو سبب بلائهم واقتحام الجنّ عليهم ونفوذ الحسد إليهم، فتركوا الغناء والتّلفاز خوفًا من ذلك، لا طاعة لله ورسوله، وقطّعوا أرحامهم، وهجروا قرابتهم خوفًا من العين والحسد، وأعرف في ذلك قصصًا وأخبارًا تدع الحليم حيرانَ، وما أظنّ أحدًا في الجزيرة إلاّ لديه طرفٌ من أخبار هذا الواقع المؤلم، فإن لم يكن لديه، فسوف يجد من يحدثه من العجائز ما لا يجد له آخرًا[1].

بنات الفكر !!

العقل الذي تتوارد فيه الخواطر، ويتسع فيه الخيال، تتساقط خاطراته واحدة تلو الأخرى، كلّما دخلت خاطرة دفعت أختها، حتى إذا عمل صاحبها فكره فيما تناثر منها، لم يمكنه إعادتها إلاّ بجهد .. هكذا من هُم على هذا الوصف، وعلّة ذلك تكاثر الواردات، وكونها تخرج من البال خروجًا فجائيًّا، فتروح كذلك.

ووجدنا من سواهم تمسك به ابنة فكره ويمسك بها، فلا تدعه ولا يدعها، وتراه يردّدها في كلّ مناسبة، فشأنها معه شأن المال القليل الذي يحصل عليه البخيل، يبقى معه ويعرف كيف جاء، وكيف يذهب،

---

(١) هذه المقالة مكررة المعنى بطرح مختلف.

وإن ضاع منه لا يبرح حتى يجد له خبرًا .. كما قال أبو الطيب:

بليتُ بلى الأطلال إن لم أقف بها   وقوف شحيح ضاع في التربِ خاتَمهْ

وأمّا الأوّل فشأنُ الخاطرة معه شأن المال مع الكريم، لا يعبأ بما وقع في يده إن ضاع منه أو أنفقه، وقد يكون من أذكر الناس، ولكنه لا يذكر تفاصيل ما أنفق ولا فيمَ أنفق .. ولهذا كان حِراصُ الكتّاب وأهل العلم والأدب يقيّدون ما كان له شأن من خواطرهم خشيةَ الفوت .. وكثيرو الكلام تقلّ خاطرتهم وابتكارهم، وما يذكرونه أو يكتبونه هو مما تلقفته أذهانهم من غيرهم في الغالب .. ولكلّ قاعدة شواذ.

المقارنة بين ابن تيمية وابن حزم[1]

- ابن حزم صنّف في الملل والطّبّ والأنساب، وفائق في الأدب والشّعر، وأحفظ في الرّجال منه، والنّحو وصنّف فيه، وتصانيفه أكثر، وكلّ ما صنَّف فيه ابن تيمية صنَّف فيه ابن حزم، من حيث الجملة.

- ابن حزم في تأليفه يذكر المسألة ويقعّد لها، ويفصّل، ويستدلّ ويذكر أقوال المخالفين، ويستدلّ لهم ويردّ عليهم .. وابن تيمية لا يتقصّى ذلك ولا ينتهي إليه. ولم يفعل ذلك إلّا في قليل من تصانيفه، ككتاب (منهاج السّنة) أو في مسائل أو رسائل معيّنة.

- يعتبر ابن حزم المدرسة الأولى لابن تيمية في التجرّد والتّمرّد على التعصب للمذاهب، وأكثر المسائل التي شذّ فيها ابن تيمية، وخالف الجمهور فهو موافق فيها ابن حزم، في الغالب.

---

(١) هذه المقارنة سببها قول الشّوكانيّ في (البدر الطّالع): إنه لم يجد بينهما مثلهما، وهي مقارنة كتبتها من قديم، ووجدتها في أضابير مكتبتي، ولم أغير فيها شيئًا، وهي قابلة لذكر فروقاتٍ أدقّ.

- عبارة ابن حزم أقوى وأقرب إلى أسلوب الجاحظ، وهو صاحب أسلوب مميز، وفيها من المفردات الثّرّة والجمل الفريدة ما يجعله مختلفًا عنه. ولابن تيمية أسلوب سهل رائق الألفاظ على سنن عبارة الغزالي وأسلوبه.

- ابن حزم في مسائل الفقه يحقق في كلّ مسألة صغيرة أو كبيرة، ويتضح اختياره وترجيحه .. وابن تيمية لا يظهر له ذلك إلاّ في المسائل الكبار. وأمّا غيرها فالغالب فيها حكاية الأقوال، دون تقصٍّ في ذكر الدليل والاستدلال.

- ابن تيمية أنقى معتقدًا، وأصفى منهجًا في ذلك .. وابن حزم له تخاليط في صفات الباري سبحانه، وفي بعض مسائل في الاعتقاد.

- ابن تيمية عبقري الفكر، ثاقب الذّهن، لا يدري القارئ حين يقرأ له هل استحضاره للمتون والأسماء والآثار أسبق، أم فهمه واستنباطه؟!

- السرّ في انبهار القارئ به - أعني: ابن تيمية - هو استطراده، وإيراد المسائل ونظائرها، وحسن التقسيم والاختيار، وتقريب المسائل، والإفادات التي يدرجها بين كلامه.

- اجتمع لابن تيمية ما لم يجتمع لابن حزم، فقد كان ابن تيمية في عصر مسبوق بأعظم التّصانيف لأكبر العلماء على مرّ العصور، ونَضِجت فيه العلوم، فاختار منها خيرها، وأخذ أحسن ما لدى ابن حزم والغزالي والشّافعي وابن الجوزي وغيرهم.

- كان لابن تيمية من العمل الصّالح وتزكية النّفس والجهاد، وتسخير النّفس لخدمة الإسلام والجلالة في الدّين ما لا نعرفه عن ابن حزم.

- ابن تيمية لا يشنع عليه إلاّ المبتدعة .. وابن حزم يشنع عليه المبتدعة وغيرهم.
- ابن تيمية افتُري عليه أكثر، حتّى كفّر بعضهم مَن سمّاه شيخ الإسلام .. وهو آيةٌ على أنّ جهاده في الحقّ أكبر.
- الرسائل والأبحاث التي كتبت عنهما متقاربة.
- ابن حزم يُدْرَس في الغرب أكثر من ابن تيمية، بسبب ردُوده على اليهود والنّصارى، وكتابه «طوق الحمامة».
- كلاهما سُجِن ونُفي، وأكثر مصنفات ابن حزم في السّجن.
- أثر كلام ابن تيمية في السّياسة الشّرعية أكبر.
- عُمّر ابن حزم واحدًا وسبعين عامًا، وابنُ تيمية سبعًا وستّين سنة.

غير أن شواغل ابن حزم في الرئاسة والسّياسة والملذات المباحة، أخذت من وقته أكثر ممّا أخذت من وقت ابن تيمية الذي كان عازفًا عن الدّنيا وملاذها، ولم يتزوج ولم يتسرَّ.

- ابن تيمية حجّ، وابن حزم لم يحجّ.
- ابن تيمية استعمل بعض المداراة، وابن حزم لم يفعل.

القناعة

إذا كثر المال عندي والورق استوى الذّهب والحجر، ولولا الخوف من الحاجة حين الإقلال أو العُدم؛ لاستويا لديّ في كلّ الأحوال، ولولا أنّ لي ما يجب عليّ إعاشته بما يكرمه؛ لاستويا أيضًا، ولولا أننا في زمن لا عزّة فيه للمُملق؛ لاستويا أيضًا.

فقد كان النّاس في الغابر إذا أراد المرء أن يعيش كفافًا اكتفى بتحصيل

قوت يومه، وتدبير ذلك يكفيه القليل، وشربة ماء ورغيف خبز فيهما غناء، وما عدا ذلك حاجيٌّ أو ضروريٌّ، واليوم تكاثرت الضّروريات وليس متاحًا لك أن تتخذ خيمةً أو كوخًا أو عريشًا تأوي إليها وتسكن، والكهرباء ضرورة، ولوازمها ضرورة، ودراسة الولد وما يحتاج إليه أمرٌ كَالضروريّ، وكان الإمام الشافعي يقول:

الجوع يطرد بالرغيف اليابس فعلامَ تكثر حسرتي ووساوسي

وأنا أقول:

* الذّلّ يطردُ بالرّيال الرّابح في عصرنا فاحفظه عند الرّاجحي

ضعفُ الوفاء

الوفيّ لا يكون جبانًا ولا مخادعًا؛ لأنّ الجبن خُلق لا ينهض بصاحبه إلى النّجدة والتّضحية والإيثار. والخداع شعبة من شعب النّفاق الكبرى التي تجمع الكذب والخيانة، ولا يكون وفيًّا صادق الوفاء مَن كان كذلك أبدًا.

ومن عجيب خُلُق الوفاء أن تجد صاحبه وفيًّا مع كلّ من ألفه وما ألفه من متاعه، وما اعتاد عليه، حتى إنه ليشقّ عليه أن يذهب عنه خادمه أو سائقه، بل يشقّ على نفسه أن يبيع سيّارته التي لن يحتاج إليها.

ومن الأوفياء مَن يداخلهم المَلل، فيحملهم على التقلّب وما يشبه اللّؤم والتنكّر، ثم يعودون لما تركوا .. ورأيتُ من يصطفي كتابًا يرى أنه لا نظير له، فيبالغ في وصفه والثّناء عليه أيّامًا، ثم لا يلبث أن يطرحه، وربما ذمّه واعتاض عنه كتابًا آخر، فكان حاله كحال سابقه وهكذا، ثم يعود إلى الأوّل ويودّ حين يملّ من قراءته أن يسمع من يَعيبه بعسر العبارة وضعف التّأليف والجمع، أو بتفضيل غيره عليه، فما هو إلّا أن يسارع إلى هواه.

وقد يكون المتّصف بهذا من الأوفياء، ولكن وفاءه غير طويل الأجل، ويُضعف وفاءه عوامل أخرى، منها: الملل والعجلة وتقلب المزاج، وتسارع الهمة والطموح.

القليلُ إلى القليل

لا تقلل من أيّ حركة في الحياة تتحرك لها يدك أو رجلك، فأوّل السّيل قطرة. فإن خطوات تمشيها ولو قليلة تنفعك ولو نفعًا قليلاً، لكنك حين تفعل ذلك مرّات يجتمع القليل إلى القليل فيصير كثيرًا، ثم يصير النّفع كثيرًا، فتنتفع في بدنك وزنًا وصحةً ونشاطًا.

ولا تقلل من شيء يضرك، أو يكون عبئًا عليك، فلا تأكل فوق ما تحتاجه ولو كان قليلاً، ولا تقل: بقي من الطعام، ولا تَقلْ: إن هذه نعمة وعليّ حفظها، فإن صحتك نعمةٌ أيضًا عليك أن تحفظها.

ولا تدع بطنك كالمزبلة تقذف فيها ما بقي من الطعام، وحفظ هذه النّعمة له طرائق كثيرة، بأن تبقيها لوقت آخر، أو لغيرك من النّاس يطعمها، أو أن ترمي بها لحيوان، أو تدعها لدواب الأرض وهوامِّها، فذلك رزقها، ولك في ذلك كلّه أجر.

وما يشيع بين النّاس من قولهم: طعام المؤمن شفاءٌ فأكثروا منه .. فكلام ليس له معنى قائم، فالطعام منه ما هو نافع في ذاته، ومنه ما هو مرض إذا ورد عليه ما يغيِّره عن أصله، ولا يكتسب الشّفاء من المؤمن، فإن قيل: هو شفاء لأنه حلال، قلنا: وطعام غير المؤمن منه ما هو حلال، وقد يكون حرامًا بالنسبة لصاحبه، وهو حلال بالنسبة للآكل، وأمّا الإكثار فهذا مخالف للهدي النبوي، وطب الحكماء، بل الإكثار شرّ، والإقلال خير.

ومن قال من الأطباء بالإكثار من شرب الماء فقولٌ فيه نظر، وإنّما لجأوا

إلى مثل هذه الوصية لدفع الضّرر الذي يكون من جرّاء كثرة الطعام، فرأوا أن في الإكثار من شربه ما يغسل البطن والكُلَا، ولهـذا لا يَقبـلُ كـثيرٌ مـن مدارس الشّرق في الطب مثل هذا.

الطريق ..!!

لطالب العلم أن يسلك إحدى طريقين في التمكّن من فنون العلم:

إحداهما: أن يأخذ في كلّ فن من فنون الشّريعة والعربية وآدابهـا كتابًـا جامعًا متوسطًا، شهد العلماء له بالتّميز والجمع والدّقة وحسـن الاختيـار وصفاء الفكرة وجزالة العبارة.

وفي المكتبة الإسلامية كتبٌ كثيرة يتخيّر منها الطالب أقربها إلى فهمـه، وأحبّها إلى قلبه، ولا يجبر نفسه على شيء، فإنه إن قهرها على ما لم تألفه عَسُرَ عليها، وكلّفه ذلك جهدًا ومشقّة .. ولن أذكـر ههنـا أمثلـة، وأحيـل القـارئ إلى المصـنّفات الـتي ذكرتهـا وهـي زُهـاء مئـة مصـنّف في كـلّ الفنون[1]، وله مع ذلك أن يختار ما هو دونها، ويجعل ذلـك في مراحـل. فله أن يجعل مكان القاموسِ مختارَ الصّحاح مثلاً .. وهلم جرًا.

وأمّا الثانية: فهي أن يختار عالمًا من العلماء المشاركين في علوم كـثيرة ولهم تصانيف فيهـا، ومـن أولئـك: السّيوطي والشـوكاني وابـن حـزم، وما نقص من تصانيف هؤلاء كمّله من مصنفات غيرهـم، فـإن ابـن حـزم - مثلاً - لم يصل إلينا كتابه في النّحو، ولا تفسيره، ولكن ما كتبه في الفقه والأصول والملل والنحل والمنطق والسّيرة والنّسـب والأدب وغـير ذلـك موجودٌ ومطبوعٌ.

وقد انتفعت بكتبه رحمه الله انتفاعًا عظيمًا، وقرأتها كلّها وبعضها قرأته

---

(١) ستطبع بإذن الله في رسالة مستقلّة.

مرّات، وكذلك الشّوكاني كتب في التفسير، وأحاديث الأحكام، والفقه، والأصول، والاعتقاد، والأحاديث الموضوعة، والأذكار، وله فتاوى ورسائل في معظم الفنون، ومنها العربية، ومنهجه واضح صافٍ متحرّر من ربقة التقليد.

وأمّا السيوطي فهو الأوّل في تعدد الفنون .. ومصنفاته تقارب الألف، وقد يكون بعضها ورقة، والمطبوع من ذلك كثير، فقد كتب في تفسير القرآن والحديث وعلومهما، والفقه والأصول، والنحو والصرف، والسيرة والتاريخ، وغير ذلك كثيرٌ، منه المنظوم ومنه النثير.

ولمن اختار هذه الطّريقة أن يجمع مصنّفات عالمين أو ثلاثة أو أربعة، كأن يجمع مصنّفات ابن كثير وابن القيم وابن هشام، لاسيما إن أراد التّبحر في النّحو .. أو يجمع مع الشّافعي النّووي والغزالي وابن مالك .. أو يجمع مع ابن تيمية ابن حجر وابن الوزير، وما فاته من العلوم يضمّه إلى ذلك .. ولا غنى له قبل ذلك وبعده عن المصنفات العالية الغالية في الحديث والفقه واللّغة وغيرها، تكون عنده مصدرًا ومرجعًا يديم النّظر فيه.

وثَمّ طريقة ثالثة، وهي: أن يعمد إلى كلّ فن من العلوم، فيختار له عالمًا ممّن رُزِق حُسن التأليف. فيختار للنّحو ابنَ هشام أو ابنَ مالك، وللّغة ابنَ دريد أو الفيروز آبادي، وللتّفسير القرطبي، وللتّاريخ ابن كثير، وللرّجال الذّهبي، ولشرح الحديث ابن حجر، وهكذا.

وأمّا ما عدا ذلك من الكتب؛ فإنّها كتب بحث أو كتب قراءة عابرة .. هذا حين يكون الطالب في أوائل منازل السّائرين في طلب العلم.

النّقد

النقد من الملكات التي تنبئ عن الفهم والشّجاعة والرّأي، وكان بعض

مشايخنا يحذِّر من التّفكير، مجرد التفكير في نقد الأقوال والمصطلحات والآراء المنقولة إلينا عمّن سبقنا، أو ما نسمعه ممّن يعلمنا، وأنه لا تجوز مخالفته لأنّها من سوء الأدب، وممّا حملناه في تقرير مثل هذا الأدب ما يحكونه في القول المأثور: (مَن علَّمني حرفًا صِرْتُ له عبدًا).

وأوّل ما نقده ذهني ورفضته نفسي وأنا غلام في الكتاتيب هذا القول الذي نستطيع أن نتكلّف لمعناه الأدبي ما يجعله صحيحًا مقبولاً .. إنّ كبت الصّغار، وكبح جماح أنفسهم النّقّادة، وأذهانهم الوقّادة جنوحٌ بهم عن مسالك العلم والرّيادة، والعقل والسِّيادة.

ولا تختلج النّفوس وتنطمس البصائر إلّا حين يؤمر النّاشئ بأن يغمضَ عينيه، ويتلقف كلّ ما يسمع ويقرأ، فهناك يضعف الرّأي، وتذبل خلايا الفكر، وتكسل الهمّة، وتَهِي العزيمة، وليسلّم حينئذ على الفَلاَح، فلن يفلح قومٌ هذا دأبهم أبدًا، وكيف يفلح من أهمل عقله أعظم ما خلق الله في جسده، وصار بتركه له كالآلة التي تردّد الأصوات التي تلقطها، والحيوان الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداء، وكم نعى القرآن على أولئك القوم الذين قالوا: ﴿حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [المائدة: ١٠٤].

وقد ذكر القرآن العقل والحثّ على التعقل بلفظه في أكثر من خمسين موضعًا، كثيرٌ منها: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ بالخطاب والغيبة، وجاء الفكر والتّفكر في نحو عشرين موضعًا، ومثله الفقه والتّفقه، فعلى طالب العلم أن لا يُهين عقلَه الذي وهبه الله له، و أنعم به عليه، فإنّ ذلك هو الوأد الظّاهر، ولتطولنّ ندامة مَن كان هذا حاله.

متعة الفكر

لا توجد متعة في الدّنيا أكبر من متعة العقل والحكمة والرّوح .. وذلك

أن متعة العقل والروح تعمّ الجسد كلّه بما فيه العقل والرّوح، ومتعة الجسد تمتع الجسد أو بعضه ولا تمتع العقل، ومتعة الرّوح والعقل تزيد صاحبها زكاءً وصفاءً وصقلاً لذهنه وتكون رَوحًا على روحه، ومتعة العقل والرُّوح تزيده قوة إلى قوّة، ثم إنها تبقى في النفس إلى حين، ومتعة الجسد يعقبها حسرة وهمّ وندامة في أحيان كثيرة، فإن كانت حرامًا جمعت له بين خسارة الدنيا والآخرة، ومتعة الروح والعقل كلما ازددت منها كان ذلك أنفع وأسمى.

وأما متعة الجسم فلا يكسبها الإسراف إلا شقاءً وإضرارًا به .. وقد جرّبنا اللّذائذ المباحة، وجرّبها الناس وشهدوا بذلك، والعلماء يشهدون وكفى بهم شاهدين، وقد كان فيهم من ولي الخلافة أو الوزارة والرفعة في الدنيا، أو كان من أصحاب المال والجاه.

حُسن الاختيار

من الكتب ما يقرأ فيه طالب العلم فيرقى بقراءته درجة أو درجات في سماء العلوم، ويسمو به فكره وتهتز له نفسه، لأن النفس تفرح بورود مسائل العلم التي لم تكن تعرفها من قبل فرح العاشق بخبر المعشوق المشوق.

والقراءة فنّ لا يحسنه كثير من الناس، وأنفع القراءة السّريعة بالبصر التي لا تدع للذّهن انفلاتًا، وليس كلّ شيء يقرأ ولا كلّ كتاب يقرأ.

ومن الكتب ما هو للبحث والرّجوع إليه وقت الحاجة، ويكتفي بقراءة مقدّمته، والنّظر في فهارسه، وتقليب صفحاته، وقراءة بعض مسائله، ومنها ما يقرأ للاسترواح لسهولته وإمتاعه، ومنها ما يقرأ مرارًا، ومنها ما يدرس وتفلى مسائله فليًا، ومنها ما يحفظ ويفهم.

وكنّا في أيام الطّلب والقراءة لدى أولي العلم نرى عجائب وغرائب في الطّلب واختيار الكتب واختيار المشايخ الذين يقرأ لديهم بعض الطلبة، فكان منهم من يأتي بـ (تيسير العلاّم شرح عمدة الأحكام) ليقرأه على الشّيخ الشّنقيطي الذي أفنى عمره في تعلّم العربية وتعليمها، وصار من الرّاسخين فيها، فقلت له مرّة: إنّ الشّيخ لا يعرف هذا الكتاب ولم يكن من مقروءاته، فمن الأحسن لك أن تقرأ في شيء آخر في اللّغة أو كتاب آخر يختاره لك الشّيخ، ثم إن هذا الكتاب وأمثاله ليس مما يدرس ولا تحتاج إلى عالم لكي يفكّ رموزه ويكشف غامضه، وأنت الآن تحمل شهادة جامعية، فإن كنت تحتاج إلى قراءة في الفقه أو في الحديث أو في فقه الحديث، فتعلم ذلك في الكتب الجامعية على أهل الفنّ، ولا تضيع وقتنا ووقت الشيخ - وهو شديد الحياء لا يردّ يدَ طالب - فيما ليس فيه كثير نفع.

زمانُنا .. !!

إنَّ الذي يقرأ في كتب الزّهد والرّقائق، كـ (كتاب الزّهد) لابن المبارك، و(الزّهد) لأحمد بن حنبل، يجد في الأخبار عن السّلف من الاجتهاد والعمل والصّبر ما يصعب على النّفوس أن تتأسّى به، ويظنّ من لا يعلم أنّ ذلك هو الغالب عليهم عَددًا وأحوالاً، وهذا ليس بصحيح، بل كان منهم الظّالم لنفسه والمقتصد والسّابق، ولكنَّ القرون الثّلاثة الأولى هي في الجملة خيرٌ من القرون التي بعدها، بإخبار النّبي ﷺ وفي أتباع التّابعين من هو خيرٌ ممّن سبقه من الأتباع.

فالفضل الثّابت اللاّزم هو للثّلاثة القرون الأولى، وأمّا القرون التي بعد ذلك فلا يلزم أن يكون ما سبق منها خيرًا ممّا بعده، فقد يكون واحدٌ من القرون التي بعد الرّابع خيرًا من الرّابع، ويكون العاشر خيرًا من السّابع أو

التاسع.

وبرهان ذلك أنّ حالنا اليوم من أول الخامس عشر إلى مضيّ ثلثه - على ما فيه من دَخَن - خير من القرن الذي قبله في العلم والدّين والخير، والمقارنة سهلة، وسَلْ كبار السِّن الذين أدركوا زمن الجهل والغُربة يخبروك عن علم و بصيرة، فقد هيأ الله لهذه الأزمان أيقاظًا موقظين جدّدوا في الدِّين وحركوهم إلى العلم والعمل، وحُفِظَ القرآن، وكثر حافظوه، وحفظ الحديث وكثر محققوه ومخرِّجوه، وبعثت المصنفات المندثرة، ودخل النّاس في العلم أفواجًا .. وانتشرت وسائل بثّ العلوم، منها ما يشاهد، ومنها ما يسمع، ومنها ما يقرأ، وأصبح العلم والعالم بين اليدين، والمكتبات المسموعة والمقروءة والمشاهدة في حوزة الإنسان، لو شاء لحملها معه حيث شاء.

كُتُبٌ عند رأسِك

إن كنت ممّن يحسن القراءة والكتابة وفي عداد العامّة الذين شغلوا بالعمل أو التّجارة، ولم يدأبوا في طلب العلم فليكن عند رأسك بعد كتاب الله تفسيرٌ يناسب فهمك، كتفسير ابن سعدي، أو كتابي (وجه النهار)، أو (التفسير الميسَّر) الذي كتبه نخبة من علماء التّفسير بمجمع المصحف بالمدينة، وكتاب (رياض الصّالحين)، وكتاب (الأذكار) للنّووي، و(ديوان الشّافعي).

وإن كنتَ طالب علم فاجعل هذه معك، وزد عليها (تفسير ابن كثير، والصّحيحين، وتفسير الجلالين، والقاموس المحيط، وديوان أبي الطيب، وديوان حسّان)، وما أعجبك من المصنفات الحسان.

فإن كنتَ في درجة أعلى من هذه، وملكتك أقوى فزدْ عليها (جامع

الأصول، وتفسير القرطبي، وديوان الفرزدق وجرير وأبي تمام، وبلوغ المرام، وسبل السلام، وشرح الآجرّومية)، واحفظ (متن الرَّحَبيّة) في الفرائض.

فإن كنتَ أعلى همّة وأكبر استيعابًا فأضف إليها تفسير (روح المعاني للآلوسي، وشرح ابن حجر على البخاري، وشرح مسلم للنووي، وديوان الشعراء الستّة، والبيان والتبيين للجاحظ، ونيل الأوطار للشوكاني، والبداية والنهاية لابن كثير، والإحكام لابن حزم).

فإن كنتَ أشدّ قوة وأكبر جمعًا، فاجمع مع ما سبق كتب أبي محمد ابن حزم وابن تيمية وابن القيم والسّيوطي. فإنّ مَن قرأ كتب هؤلاء العلماء الأربعة - ويحتاج لقراءتها أكثر من عام - فإنه ينتفع نفعًا لا نظير له، ويجمع كثيرًا من العلم، ولعلّه يجد في طريقه مسائل لا يفهمها، فعليه أن يتجاوزها ويضع عليها إشارة، وما لم يفهمه اليوم سيفهمه غدًا، فإن لم يفهمه وحده، فليباحث فيه أهل العلم، فبالمباحثة والمذاكرة تنجلي لك معان تصل إليها أنت قبل أن يصل إليها من تباحثه، ولو كنتَ وحدك ما تجلّى لك منها شيء، وأقرب تعليل لذلك أنه من بركة التّعاون ومن ثمرات تلاقح الأفكار.

فإن كنتَ أعلى همّة من ذلك كلّه فلا تقف عند حدٍّ، ولكنّ التّدرجَ لك أوفق، وبك أرفق.

واعلم أنّ في جمع الكتب منفعة عظيمة، ولو أخذت أعدّد منافعها لطال الكلام، فإن كنتَ في شكٍّ من ذلك فاسأل الذين يجمعونها. وإنّ فيها لخيرًا وبركة لطالب العلم، وإنّ لها لأثرًا على عقبه من بعده.

وما فاض لديك من الكتب مما تكررت طباعته فأهده لغيرك ممّن هو في حاجة إليه، لاسيما في البلدان البعيدة فذلك زكاة له.

أصنافُ الدّعاة !!

الدُّعاة في ميدان الدّعوة كثير، والذي يظفر بأجر الدّعوة وشرفها هو من دعا إلى الله على بصيرة ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصّلت:٣٣].

ولكن فريقًا منهم يدعون وهم يحسبون أنهم على شيء، لأنهم يظنون أنّهم يدعون إلى الله وهم يدعون إلى أنفسهم أو إلى الجماعة أو الحزب، وهذه بعض ملامح هذه الفئة، ولا أعني بها جماعة بعينها، بل هي موجودة في كلّ الجماعات بلا استثناء على نسب مختلفة:

١- لا يراعي الواحد منهم في معاملة الآخر من غير جماعته شيئًا من معاني الأخوة الإسلامية، من حبّه لأخيه ما يحبّ لنفسه، وحسن الظّنّ به، والذّبّ عن عرضه، والتّألم لألمه، والفرح بما أعطاه الله من خير، بل يفرح لحزنه، ويحزن لفرحه، ولا يحبّ له الخير أصلاً، ويرى أنّ موته خيرٌ من حياته، ويقدّم الفاسق المجاهر عليه في المعاملة والمداراة؛ لأنّه يرى أنّ ضرر المتدين أكبر من ضرر هذا، وأنّه أشدّ له عداوة.

٢- لا يقبل الحقّ من الخلق إلاّ ما كان من حلقِ أصحابه والمنتمين إلى أقطاب جماعته، أو حزبه، أو مذهبه.

٣- الأولويّة عنده في كلّ حقّ يستحقه أحدٌ من خلق الله هي لأفراد جماعته، ولا يجوز عنده المفاضلة في هذا الباب، بل لا يجوز المساواة، وينسى كلّ أوامر العدل ومعانيه، ويرى في مخالفة ذلك خرقًا لسياج الدّعوة، ودفعًا في وجه مصالحها.

٤- لا يجتهد في مناصحة من يخالفه ولا ينتمي إلى منهجه، ولو كان زميله الذي يجالسه ويخالطه، بل يشرب معه الشّاي ضحًى، ويحذّر منه حين يمسي.

٥- يصدّق كلّ تهمة قيلت عنك، وكلّ عيب ذكر فيك، فإذا كانت التّهمة في واحد من قومه قام يدافع عنه، وينكر، وقرأ قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]، وربّما ذكر القراءة الأخرى، ﴿فتثبتوا﴾، فإذا ثبتت التّهمة لجأ إلى الكلام عن فضل السّتر على المسلم، وخوّف من إشاعة الشّرّ في المؤمنين، وحذّر وأنذر.

٦- يسعى إلى المناصب، لأنّها ثغور يجب أن تحتلّ وأن يملأها من يستحقّها، ولا يستحقّها إلاّ من كان على شاكلته ومشربه، كلّ ذلك من أجل الإسلام وخدمة الإسلام في زعمه، فهو في صراع دائم من أجل ذلك.

٧- يرى أنّه يجب أن يحارب على جبهتين، جبهة يدعو الناس فيها ويعلمهم الخير، ويُلاينُ فيها أعداء الإسلام، وجبهة أخرى يحارب فيها من يسمّيهم أعداء الدّعوة، ومن يسمّيهم خصوم الدّعاة من الإسلاميّين، وبين هاتين الجبهتين أكمة ينادي من أعلاها إلى حزبه وجماعته.

٨- حين تكون له مصلحة لدى مسؤول يتلطّف معه ويغضي بصيرته وبصره عن كلّ سوء، وربّما قال له: (أحبّك في الله)، أو كتب في خطابه (محبكم)، وقد لا يكون في بعض ذلك حرج، فليس من الكياسة أن يكون في مقام الالتماس إلاّ اللّطف، ولكن الحرج في دعواه المحبّة، ونسيان ذلك الجميل، واتّخاذه المسؤول مطيّة، وإظهار معاداته حين تحين الفرصة، واتّخاذه سبيله ذلك منهجًا للضّحك والاستغفال.

٩- رُبَما يودّ أحدهم لو يقطع عليك كلّ طريق تعمل فيه للإسلام ونفع

العالم، لأنّه - فيما يرى - عمل غير صالح، فلا تسألن بعد ذلك عن الأفاعيل التي يفعلها، والكيد الذي يكيده، والمسالك التي يسلكها.

١٠- التّعاون لديهم على البرّ والتّقوى لا يكون إلاّ لمن انتمى إليهم، وأيّد منهجهم، ولهم طرق في تجميع الولدان وطلبة العلم لشهود محاضراتهم ودروسهم.

١١- علامة الولاء والحبّ لدى الأتباع من غير المنظّرين والمعروفين لديهم زيارة أقطابهم، والثّناء عليهم.

١٢- لا يكتفي بالحكم على ما بدر من خصمه من مخالفة، أو توسّع جرى فيه على فتوى متساهلة في رأيه، بل يحكم على باطنه، بأنّه يكيد للإسلام، ويريد كسر عجلة الدّعوة بمعولِه الهدّام هو ومن وراءه.

١٣- إذا رأوا أنّ ذلك الشّيخ يجب إسقاطه دبّروا أمرهم بليل، وتواصوا على ذلك، وقاموا ومَشَوا، وتكلّموا وكتبوا، وقعدوا له ولكلّ قريب له كلّ مرصد.

وبعد: يا طالب العلم: فالوصية لك أن تعتزل هذه الجماعات كلّها، ولا تعادِ أحدًا منهم وإن عادوك، فإنّ معاداتك هي ثمرة من ثمرات غراسهم الذي غرسوه، فلا ينل منك الشّيطان تلك الثّمرة الكاسدة الفاسدة، وصُكَّه بيمين الاستعاذة على وجهه، وأدم النّصح بشرطه المعتبر على وجهِه، ولا تقع فيما وقع فيه أولئك، فإنّ الشّيطان لم ييأس من التّحريش بين النّاس، لا سيما المسلمين، لا سيما أهل العلم والدّعوة.

وأوصيك بأن تأخذ من كلّ شيء أحسنه، ومن كلّ نهج مستحسنه .. وليكن قائدك في ذلك الصّدق والبيان، ولا تملأ قلبك شحناء على



إخوانك، وأطع الله ولا تعصه فيمن عصا الله فيك ولم يطعه، واعلم أنّ كثيرًا منهم أو أكثرهم يريد الخير ونفع الخلق، بل هذا هو الأصل، ولكن التعصّب المذموم، وسوء الظّنّ، والأثرة، هي الحوالق الثلاث التي حلقت أضداد هذه الأمور، وخلقت العداوة والبغضاء والتّنازع والتّفرق فالفشل، وأكيس النّاس اليوم من لم يُعرف إلاّ بأنّه مسلم يتّبعُ قولَ الله وقول رسوله ﷺ، فمن حصل له ذلك كان كمن كان في عصر صحابة رسول الله ﷺ وتابعيهم بإحسان، والله يجمع بيننا وإليه المصير.

الرّكض إلى الفضاء !!

الذين آثروا الفضائيات واستبقوها وذهلوا عن بيوت الله أن يعلّموا فيها النّاس العلم والخير من الكتاب والحكمة مخطئون من وجوه:

منها: أنّهم عدلوا عن الفاضل إلى المفضول؛ لأنّ في بيوت الله عزّ وجلّ من الخير ومضاعفة الحسنات ما يعظم قدره، ولو لم يكن منها إلّا قوله ﷺ: «**ما اجتمع قومٌ في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم، إلاّ نزلت عليهم السّكينة، وغشيتهم الرّحمة، وحفّت بهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده**».

ولو لم يكن في هذه الأربع إلاّ ذكر الله لهم في الملأ الأعلى عنده لكفى، وإنّ المرء ليسر سرورًا بالغًا بأن يذكره عظيم من عظماء الدّنيا بحضرة حاشيته، فكيف بملك الملوك ؟

ومنها: أنّ في حلق المساجد دعوة النّاس لإعمارها وحضور الصّلوات ومحبّة المكث بها، وكلّ ذلك طاعة وعبادة وخير.

ومنها: أنّ النّاس يتعلّقون بالمشاهدة ويرون أنّها خير لهم من حضور المساجد، وربّما ألهاه ذلك عن صلاته أن يسارع إليها.

ومنها: أنّ من أراد أن يكفَّ بصره وأن لا يخدش مرآة قلبه بمشاهدة الفضائيات يشقّ عليه ذلك؛ لأنّها هي الوسيلة التي يسمع منها ويرى، ولا سبيل له إلى المساجد لأنّها قد عطّلت من دروس العلم.

ومنها: أنّ الراكض إلى تلك القنوات لا يخلو صاحبه من جوارح الإخلاص إن كان لديه إخلاص، ومن تلك الجوارح حبّ الشّهرة، والنّداء بلسان الحال: (اعرفوني .. ويا أيّها النّاس إني). ولقد كنتُ في ضيافة بعض إخواني من أهل العلم، فقرأ عليّ رسالة من هاتفه الجوّال من زميل له يخبره بظهوره في تلك السّاعة في إحدى الفضائيات .. فلم أجد بعدها أثرًا في نفسي لما يقول من كثرة بكائه .. ولعلّه أراد النّصيحة أو أمرًا آخر.

ولقد كان أهل العلم ينفقون من أموالهم لتحصيل العلم، فصرنا اليوم نبذل علمنا وشيئًا من ديننا لتحصيل المال والجاه والشّهرة .. والله المستعان.

الشّاةُ .. والكلبة

قال بعض الرِّفاق: البركةُ من الله .. الشَّاة تلدُ واحدًا أو اثنين، ويذبحُ من الغنم كلّ يوم في بلدنا آلافٌ مؤلّفة، وهي مع هذا لا تزيد إلاّ تكاثرًا، والكلبةُ تلد إلى سبعة أجْراء، ولا يُذبح منها شيء، وهي من قلّتها كالمعدومة.

فقلتُ: لا تنس أنّ من أسباب البركة في جماعة الغنم كثرة السِّفاد، لأنّها تأكل من طلوع الشّمس إلى غروبها، وإنّ بين كل أكلة وأكلة نُزوًا أو نزوَين، ومدّة حمل الشّاة كذا وكذا .. وأمّا الكلبة بنت الكلب فبطيئة الحمل نائية الوضع نادرة القبول للوطاء. وقلّما أمكنت الكلبَ من نفسها وفرغ منها سالمًا.

العزلة

لعزلة المؤمن - لا سيما العالم - فضل كبير على نفسه ودينه وعلمه، وهي حيلة الصدّيقين ومدرج السّالكين، وفيها يذوق حلاوة لا يجدها مع مخالطة الخلق ومعاملتهم، فإن كان في عزلته فوات مصلحة أكبر قدّمها على عزلته ما لم يضرّه ذلك في دينه، أو نفسه، وإن صبر على إيذاء الخلق بالمخالطة فهو خيرٌ له. وعن الجُنيد: «مكابدة العزلة أيسر من مداراة الخُلطة».

فلسفة الدّعوة

كلّ دعوة لفكر أو منهج أو مذهب انطلقت من الجماهير فهي دعوة عاطفة تلهب القلوب، وقلّ أن تقنع العقل، وقلّ أن تؤتي أُكُلًا، وربّما ارتدّت على صاحبها وتهاوت عليه وعلى دعوته، وما نجحت دعوة ولا بقي أثرها إلّا إذا كانت ناشئة عن طريق دعوة القبول والفهم، فيكونون هم العَمَد الذي يُبتنى عليه صرحهم .. وانظر إلى الدّعوات على مرّ الزّمن سواء في ذلك دعوات الحقّ ودعوات الباطل، وقد يكون فيها نوع يشبه ما قرّرته وهو أن يكون الدّاعي داعيًا بسلوكه وعمله، وليس من قصده أن يضع منهجًا ولا يؤسّس مذهبًا، ثم يؤول بعد ذلك إلى تحاور وإقناع؛ لأنّ حسن العمل وحسن الخلق والتصبّر وقوّة العزيمة، وعلو الهمّة، تحرك من حوله إلى الإعجاب وتقدح الفكر ليسُدَّ ثغر عجبه.

ليِّن القول

أسلوب أبي محمد ابن حزم - رحمه الله - وما جرى مجراه من أساليب الرّدّ والتّشنيع، وألفاظ النّعت المشبهة لعبارات الجرح في الحديث = لم تعد اليوم مقبولة؛ لأنّ الناس اليوم قد ترطّبت طبائعهم وضعف تحمّلهم

وينفرون من أدنى تعنيف.

وقد كان ذلك في زمن من يصلح فيه أحيانًا مثل ذلك القول، أو كان المقام يستدعي ذلك، فإنّ عبارات الجرح لا تكون بلفظ رقيق، وهي بحسب الجارح والمجروح وسبب الجرح.

ولبعض النّاس مسلك آخر في زماننا يجمع فيه بين لطيف الكلام وغليظه، وطيّبه وخبيثه .. بما يشبه التّناقض في القول، فيقدّم المِدْحة البالغة، ثم يردفها بـ (لكن) فيقضي بها على كلّ ما قبلها، كما ذكرتُ ذلك مفصّلًا في موضع آخر.

كيف الحال ؟!

يتصل بك فلان، الذي ربما لقيك قبل ساعات، وحدّثك وحدّثته، وسأل عن حالك واطمأن عليه، وقال لك: كيف الحال؟ فقلت له: بخير، ثم سألك، ولا يزال يسألك عن الحال والعيال والصحة واللون .. وغير ذلك، وأنت تجيبه بما لا يسمع إلّا دعاءً ونداءً.

وما أدري لعلّه إذا أجيب بما يُنبِئُ عن سوء الحال، وانشغال البال، ووقوع الفكر في بلبال وبلبال، لما هزّ بذلك نفسًا، ولا رفع به رأسًا، فيتصل بك آخر النّهار وأنت في شُغل أو في غير شغل، فيسأل - بعد السّلام والتّحية - عن الحال، والعيال، ثم عن العيال والحال، ثلاثًا، أو خمسًا، أو سبعًا، على حسب ما يسمح به الوقت ثم ينفذ إلى موضوعه .. وقد يكون ذلك خلال الكلام، وبين أطراف الحديث.

ونحن مضطرون إلى الإجابة والمجاراة؛ لأنّ ذلك ممّا عمّت به البلوى، ولا لوم على من جارى فيما تَعُمُّ به، والملحظ في الأمر من جهتين:

إحداهما : تضييع الوقت بكلام لا ينفع.

والثّانية: تكرار كلام لا طائل منه؛ لأنّ الكلام إن كُرِّرَ دون إرادة التوكيد والتقرير فهو ترديدٌ أشبه بالكلام الذي لا معنى له أصلاً، وربما كان السّائل شارد الذهن، أو حمله على ذلك تفكيره في الكلام الذي سيقوله بعده، فهي أسئلة تفكير - إذا صحّ التعبير -.

كَيف تنقصُ الأرضُ؟

موت الأحبة مفزع، وهو أشدّ وقعًا على القلب حين يكون الفقيد من أهل العلم، فقد أصابت مصيبة الموت منذ أيام[1] عالمًا من علماء الإسلام، وهو العلامة، الأصولي، الفقيه، أ.د: عمر بن عبد العزيز بن ملا بن بابكر، الشليخاني نسبة، العراقي مولدًا ومنشأً، بمدينة كركوك، الأزهري دراسة وشهادة، المدنيّ، ثم المكيّ، ثم القطريّ، وبها توفي يوم الأحد ١٣/٨/١٤٣١هـ ،كان ينهض بعلم جم، وخلق وتواضع جليلين.

تتلمذ - رحمه الله - على والده، وحكى أنّ والده شرح (جمع الجوامع) في علم الأصول أكثر من أربعين مرّة، كما قرأ على علماء آخرين، أجلّهم عنده، الشّيخ مصطفى عبد الخالق.

نال شهادة الدكتوراه من كلية الشّريعة والقانون، بجامعة الأزهر، عام ١٩٧٠م، ثم عاد إلى بغداد فدرّس بكلية الآداب، ثم بكلية القانون، وفي عام ١٩٧٦م جاء المدينة النبويّة المنورة ليكون أستاذًا بقسم الدّراسات العليا بالجامعة الإسلامية إلى سنة ١٩٩٤م، وفي هذه المدّة أشرف على إحدى وثلاثين أطروحة دكتوراه، وسبع وعشرين رسالة ماجستير، ممّن أشرف عليهم الشّيخ بكر أبو زيد، والشيخ علي جابر، رحمهما الله، وناقش ثلاث عشرة رسالة، منها: (أحكام الجراحة الطبيّة) أطروحة دكتوراه، للشّيخ محمد المختار الشّنقيطي.

---

(١) كانت كتابة المقال بعد وفاته بأسبوع.

وكانت له دروس في المسجد النّبوي الشّريف، ثم في مسجد الجامعة، في أصول الفقه. وانتفع بـه الطلبـة وأسـاتذة الأصـول، لتمكنـه، ودقّتـه، وبراعته، وسعة صدره في البحث، ولما جاء مكة عام ١٤١٦هـ أستاذًا في الدّراسات العليا بكلية الشّريعة بجامعة أم القرى تسابق إليه طلبة الأصول، وطلبتُ إليه أن أقرأ عليه (جمع الجوامع) فلقيـت طَلِـبتي عنـده، إذ كـان - رحمه الله - بنَّاءً في تقرير المسائل، غوّاصًا على دقائقها، ينطلـق لسـانه ولا يضيق صدره لما أعترض بـه، وأورده مـن إشـكالات، وذلـك شـأن الرّاسخين في العلم. ثم رحل إلى دَولةِ قَطَر قبل إتمامه.

ومؤلفاته ودروسه التي تركها شاهدة على علمه وفهمه وتحقيقه، ومـن مؤلفاته: الزّيادة على الـنّصّ، والـنَّقص مـن الـنَّصّ، والمعـدول بـه عـن القياس، وحكمة الشّـريعة (أطروحـة دكتـوراه)، ومباحـث التّخصـيص، ولكنَّ علمه يتجلّى في تدريسه ومناقشته أكثر من غيره، وقد فُسِّـر نقصـان الأرض بموت فقهائها وعلمائها، قاله مجاهد بن جـبر، جـبر الله مصـيبتنا فيـه، ورحمـه رحمـة واسـعة، وأعلـى درجتـه، وأكـرم نزلـه، وأخلـف المسلمين خيرًا، فقد كـان موتـه ثلمـة في بنيـان علمـاء الأصـول، وهـم قليلون[1].

أستاذُ الجامعةِ !!

طرحتُ بالأمس في سجال علمي فكرةً ذات ثلاثِ شعب تتعلق بأسـتاذ الجامعة، وأطرحها الآن مكتوبة، لعلها تصادف فكرًا يعضـدها، أو ذهنًـا ينقدها:

إحدى تلـك الشّـعب: أنَّ مرقـاة أسـتاذ الجامعـة لـدينا قصـيرة، ذات

(١) وهذه بادرة، وليست خاطرة.

درجات ثلاث، وقد يرتقى إلى الثّالثة - أعني درجة أستاذ - وهو دون الأربعين، ويبقى بعد ذلك سنين كثيرة على لقبه العلمي ذاك، ويتوهم من حيث لا يدري أنه بلغ الغاية، وتضعف همّته؛ إذ لا مطمح من مطامح العلم تشرئب عنقه إليه، والله يقول: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، ويقول: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، فما الذي جعلها درجات محدودة معدودة؟ وما الذي جعل الناس متساوين في مراتبهم في العلوم ؟

الثانية : المعتبر في التّرقية لدينا بحوث يقدمها دكتور الجامعة، وهي وسيلة لا ينتقص من قدرها من حيث الجملة، ولكن هناك وسيلة أكبر منها وأقوم، وهي قِدَمُه، وسابقتُه العلمية، وعطاؤه التّعليميّ، وإفادته لطلابه، وتخريجه لتلاميذه الذين حصل بعضهم على درجة أستاذ وليس عنده معشار ما عند أستاذه، وهذا الاعتبار - أعني الأقدمية - يُعمل به في بعض جامعات العالم، منها جامعات غربية، كجامعات بريطانيا، والمراتب لديهم: محاضر، وهو بمنزلة (أستاذ مساعد)، فمحاضر قديم، فبروفسور، فقارئ.

الثالثة: لقب أستاذ في لفظها لا تنبئ عن لقب علميٍّ دَالٍّ بنفسه على معناه، كلقب أستاذ مشارك مثلاً، ومن كان غير عارفٍ بالاصطلاح لا يدرك أنه لقب علميّ زائد على ما تعارف النّاس عليه، فإنّه يطلق في العرف المشهور على كلّ من لا يحمل شهادة الدّكتوراه .. واللّغة العربية في خزائنها من الألقاب ما لا يحصى كثرة، ولعلماء الحديث ألقاب معروفة للرّواة وحُفّاظ الحديث، منها: (الحافظ)، و(الحجّة)، و(الحاكم).

أيّهم أقربُ نفعًا !!

هذه التّصانيف التي يكتبها المرء كالآباء والأبناء الذين قال الله فيهم:

﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء:١١]، فربّما حضرت النيّة في أحدها وصدق الإخلاص فيه ما لم يصدق في غيره، فنال به ثواب الدنّيا وحسن ثواب الآخرة، وحسنُت عاقبتُه.

فهرس الخاطرات